الأدب المدافع

والمسألة الفلسطينية

محمد زفزاف
– المغرب –

طرح كلود روا الكاتب الفرنسي المعروف في كتابه الأخير « دفاع عن الأدب »(١) هذا السؤال : « ان الأطباء يهتمون بالأجسام المتألمة ، كما يهتم المهندسون بالقناطر والآلات ، والاقتصاديون بالتصاميم ، والفلاحون بالقطاف . أما الكتاب والفنانون فبأي شيء يهتمون على وجه العموم؟» يعطي اجابة مباشرة بعد ذلك : « انهم يهتمون بايقاظ الخيال وإيقاظ تلك الناقة الصماء أبداً التي ندعوها حساسية . انهم يهتمون باخراجنا عن ذواتنا »(٢) .

١ – Claude Roy – Défense de la Littérature – Collection « Idées »: Gallimard, 187 Pages

(٢) الكتاب ذاته ، ص ٨١ .

أعتقد أن ما يهمنا في هذه الكلمات ليس هو الإجابة ، ولكن ما يهمنا هو السؤال نفسه : ما هو دور الكاتب ومهمته إزاء العالم وإزاء نفسه؟ فاذا كانت القضية مطروحة منذ سنوات على بساط المناقشة ، فانه ليس من العيب إعادة طرحها ،لكن بوجه آخر : مهمة الأدب، والاديب العربي بالخصوص، إزاء المسألة الفلسطينية . نحن لا نريد أن نسقط في مناقشة السؤال : « ماذا يستطيع الأدب أن يفعل ؟ » بمثل ما سقط فيه مفكرو الغرب . ولكنا نحاول أن نثيره على مستوى أضيق قبل كل شيء : ما هو الدور الاساسي للأديب تجـــاه القضية الفلسطينية ؟ مـــع العلم أنه ليس من اللائق لكل اديب حر أن يحصر اهتمامه في قضية محلية واحدة . ان اهتمامات الكاتب الحر اليوم تنحصر – الشيء الذي اصبح عادياً ومعروفاً جداً – في مواجهة الاستعمار والاستعمار الجديد بأشكاله المتعددة: – التميز العنصري – فتنام – فلسطين – الصراعات الداخلية لأمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا (وفي بعض الأحيان أوربا الشرقيـــة) . . إن كل أديب حر – أقول – قد آلى على نفسه شجب الطغيان والحروب غير المشروعة وإعلان العصيان والثورة في وجه الامبريالية ، ومقاومة «التخمة» الثورية لدى المثقفين المتبرجزين المنتشرين اليوم في أرجاء الأرض ، والذين يتشدقون بوحدوية العالم ، وبحقوق العمال ، وبالانسحاب الفوري لقوى الاستعمار . او في بعض الأحيان بث قوى معادية مركزة للقضاء على «اللويثان» أو التنين الاستعماري وللقضاء على الافكار الحليفة للامبريالية الجشعة . كل هذا يعتبر اليوم من غير شك القضية الواحـــدة المطروحة بالنسبة للكتاب الأحرار في الشرق او في الغرب. وباعتقادنا أن القضية لم تعد تقبل اية مناقشة، اللهم إلا إذا اتخذت وجهاً آخر ، وشكلا آخر ، واتجاهاً آخر بحكم التغيرات والتحولات في الجانب المقابل . ولعل القضية الملحة الآن على

كل كاتب عربي حر هي المسألة الفلسطينية . كيف يتم الدفاع عنها ومقاومة الصهيونية كشكل من اشكال الاستعمار والتميز العنصري ؟

لقد بدا لي أن سير المناقشة التي تولدت بعد النكسة قد خرج عن الخط . فكل المجلات وكل الصحف تتحدث عن دور الثقافة العربية ، ومدى مساهمتها في الفشل العسكري والنكسة التي حلت بالوطن العربي . ومهما يكن فان اي كارثة من هذا النوع تستدعي بالضرورة سبباً لوقوعها ، واقرب شيء تلصق به التهمة ، هو الثقافة ، بوصفها مسؤولة دائماً ، ومسؤوليتها تجعل منها دائماً ، مسؤولة ، عن كل ما كان خارجاً عن الخط ، غير عادي ، ضاراً وشريراً . فاذا كان هذا صحيحاً الى حد ما : الثقافة مسؤولة عن الأجيال وتربيتها وتوجيهها ، فان الأصح هو : ليست كل ثقافة كاملة في حد ذاتها . فالى جانب الاحرار هناك دائماً وأبداً يقبع المهرجون والمحرفون والمنحرفون . على انه ليس من الواقع في شيء وصم اي ثقافة بالنقص والعار . ذلك ان جوهر الثقافة هو التقويم الاساسي للعوالم والتاريخ (١) . ونفي جدوى أية ثقافة معناه انحراف ، ومعناه سقوط ، ومعناه تضليل . اقول هذا وفي ذهني بعض الخطوط الواضحة لمواجهة النكسة ، كما هو الشأن لدى كل واحد منا . لذلك فان الاتهام الذي يوجه اليوم الى الثقافة العربية جاء سطحيا جداً . والإدانة يجب ان تكون بالحجة ، وأن تكون الملفات والدوسيهات جاهزة قبل اعلان الاتهام . ولعل سر فشل المناقشة حول الثقافة العربية هو السرعة واليأس المرير ، والخروج عن الطور والغضب والانفعال . كل ذلك جعل المناقشات عقيمة وغير ذات نفع او جدوى . فللتدليل بأمثلة من هذا النوع نقرأ هذه السطور : « المطلوب من المثقف العربي اليوم أن يتجاوز انسحاقه وهزيمته امام الآخرين (!!)

---

(١) أثبت بعض المثقفين أنهم يتبعون التاريخ ولا يفعلون فيه بحيث تنعدم فعاليتهم ، وهذا لا نريده بطبيعة الحال .

.. المطلوب منه أن يحس ويستشعر بايجابيـــة وبقوة رصيد الذات .
المطلوب منه بكل ايجابية وبكل قوة أن يقدم نفسه ، لا ليمسح عار هزيمة واحدة بل هزائم قرون متطاولة . المطلوب منه ان ينفض عنه جميع أوحال القرون ».(١)

هذه السطور ليست منتقاة ولئا وقع عليها الاختيار من بين آلاف السطور على صفحات المجلات العربية تجعلنا نقف بكل هزيمة، وبكل فشل ، أمام ذلك التراث الضخم ، وذلك التاريخ الطويل من الأمجـــاد العربية . ان سطوراً اخرى من هذا النوع كافية لأن تجعلنا نتقهقر بانهزام تام قرناً آخر ، ولا يمكن المرء الا أن يعلن بدون تحفظ، إزاء سلبية من هذا النوع، اتهامه وتشككه في النية الحسنة التي كتبت بها تلك السطور . فالهزيمة هي هزيمة الاجيال العربية، والفشل هو فشل الثقافة العربية بأسرها . ثم ان المثقف العربي منسحق ومنهزم ببرارة . هـذا التعميم الذي ليس سوى انفعال مرير طبع اغلب المناقشات الفكرية التي جاءت بعد النكسة . ثم ان الخطابة والسطحية والسرعة ، كل ذلك جعل سير المناقشة منحرفاً ، وجعل كل ما قيل مجرد تفاهات واجترار . ومحاولة التوفيق والمقارنة جاءت هي الأخرى سطحية ، وفي غير محلـــها . بل ان البعض من (المفكرين) العرب سقطوا بصفة مباشرة في ذلك النواح القديم ، ورثاء الأمجاد المنهارة . وفي اللحظة ذاتها ، نبع نوع جـديد من الادب سموه بأدب المعركة ، وسأسميه أنا « الادب المدافع » . حيث ان الدفاع سيتجلى في اشكال متعددة ، وعلى مختلف الواجهات الحضارية والمقومات الانسانية لأمتنا العربية : الدفاع من اجل الوحدة ، من اجل التخلص من الاستعمار بمختلف اشكاله ، إعادة النظر في فكرة

---

(١) محيي الدين اسماعيل . في الثقـــافة العربية . مجلة الآداب البيروتية . عدد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ .

«البناء التي ينادي بها أشخاص مجهولو الهوية» . كل ذلك لأن لفظة «أدب المعركة» تفترض بالأساس زمناً معيناً محصوراً ، في حين ان فكرة «الادب المدافع» تفترض استمراراً ولا محدودية ؛ ذلك ان الدفاع في مختلف الجبهات مع الوعي الكامل لهذه العملية فيه تنبؤ وامتلاك مسبق للصيرورة التاريخية ، وفيه ايضاً شعور كاف وواع بالسيرورة الثورية الداخلية . إننا نرى أن الوعي يسيطر ويمتلك زمام الامور . ذلك أن من صور النجاح : الدفاع ، المواجهة ، التنبؤ ، الوعي . ولعل هذه الاشكال كلها ليست في المجمل سوى شكل واحـــد لا يقبل التجزئة : العمل من أجل العمل يجب ألا يفهم هنا أننا ندعو إلى مثالية كانطية . إننا لا نريد أن نسقط أفعالنا في النفعية ، فالنفعية من شـيم البورجوازية والاقطاع ، ومجتمعنا العربي اليوم يتجاوز هذه المراحل . واذا كان هناك شك في تجاوزها ، فالواجب إذن هو التجاوز مع مراعاة القرائن التاريخية الضرورية . فالمعروف أنه لدى إثارة مسألة الثقافة العربية ، وقع هناك بعض الحيف ، وسقط أغلب المتحدثين في بيزنطية لا تغتفر وشاعت تفاسير غريبة للتطور التاريخي . وكان الابتعاد عـــن المناهج العلمية في الشرح والتحليل هو الغالب على جميع المحاولات . إن إعادة النظر في قرون من الحضارة تتطلب ذكاء خارقاً وعبقرية تتجاوز النبوة . ولا أعتقد أن جميع المتحدثين اليوم يتوفرون على صفة من صفات النبوة . إن ما يمكن للمرء أن يفعله هو التسلح بمناهجه العلمية الأكاديمية ، لا التسلط على المادة المدروسة بكل نية مسبقة لإدانتها وإحباطها . إن هذا ما استطعنا أن نلمسه بكل أسف ، لا عندنا نحن فقط ، ولكن في كل مكان .. في كل بلد شهد تغييراً أو تعرض لهزات . لنأخذ تشيكوسلوفاكيا مثلاً . لقد فسرت الحوادث التي وقعت هناك بأنها نتاج لتعاطي الشباب لأدب كافكا . ومهما يكن الأمر فهذا غير صحيح البتة ، كما أن محاولة

من هذا النوع ، هي في اعتقادنا بيزنطية وغير مجدية . فاذا كان من الواضح أن المقارنة بين الهزيمة التشيكية أو البولونية أو الفرنسية أو الهزيمة العربية شيء بيزنطي وغير ذي نفع ، فان الأفظع من ذلك كله هو التغاضي عن جميع الأسباب التي أدت الى الهزيمة والصاقها بالثقافة العربية ، بقرون وأجيال لم يكن لها أي علم بما وقع في القرن العشرين . نحن إذن أمام مشكل عويص جداً . ولذلك فان الحل جاء هكذا سريعا : أن نحاول إرجـــاع المسؤولية الى أموات لم يعد في إمكانهم - بطبيعة الحال - الدفاع عن أنفسهم، ولكن التاريخ سوف يبرئهم . وها قد بدأ يفعل الآن ! . ان النكسة وقعت . والثقافة العربية كانت مقصرة بطبيعة الحال في إذكاء حماسة الأجيال ، واحباط النوايا العدوانية للخونة، وبث روح المسؤولية والتضامن الجماعي للفرد . كل ذلك كان الى حد ما صحيحاً . غير أنه لا يمكن الاعتماد أساساً على إتهـــام من هذا النوع ، خصوصاً وأن الأوضاع أصبحت واضحة اليوم ، وأصبحت بالتالي تتطلب مواقف جديدة ، ورؤى جديدة وتفترض أسئلة أخرى عديدة : أي دور يجب أن نقوم به وقد آل بنا المصير الى ما نحن عليه ؟ ما هو المطلوب منا كأدباء وككتاب وكمفكرين ؟ لقد اشتدت المقاومة - وهذا شيء غـــير مشكوك فيه - ، وتوضحت الطريق ، وبات من المعترف به أن هؤلاء أصدقاؤنا وأولئك أعداؤنا . إذ لم يعد في إمكان أي واحد منا أن ينكر ذلك . فالطريق اليوم هو طريق الوحدة العربية ، وطريق التحرر من الاستعمار ، ومن جميع الملابسات الـــتي تغلف أو كانت تغلف ثورتنا واتجاهاتنا الفكرية والسياسية والإيديولوجية . إزاء هذا كله يقوم السؤال الذي كان من الضروري أن يطرح في إبانه ، أعني الدور الذي يتعين على الأديب أن يضطلع به . كان من المفروض أن يوضع سؤال بـذاك المستوى . وكان من

المفروض أيضاً أن تأتي الإجابة أولاً بأول ، غير أن المناقشة — كما أعلنت ذلك سابقاً — قد انحرفت عن الخط . إن أدباءنا وكتابنا اليوم ، هم أحوج — أكثر من أي وقت مضى — الى اثارة موضوع وجودهم . هل هم ضروريون ؟ وهل حرفتهم تجدي الى جانب السلاح الذي فرقع ولا يزال يفرقع — ليس في فلسطين وحدها — ولكن في جميع أنحاء الوطن العربي؟ إن المسار الثوري لأمتنا العربية قد اتخذ شكلاً آخر . إذ غير الاتجاه وأصبح محتداً . المطلوب اليوم هو مناقشة إمكانية مواكبة الفكر والأدب لهذا المسار . ما هو الدور المطلوب منه القيام به؟ ما مدى الفعالية التي تخلفها قصيدة أو قصة أو رواية أو مسرحية أو لوحة لدى القارىء العربي الذي حاول أن يستعيد حيويته ؟ هذه هي الأسئلة الملحة ، التي تتفرع كلها من سؤال واحد أعتقد انه ضروري واساسي: هل استطاعت المحاولات التي كتبت بعد النكسة مباشرة ان تغطي جميع احتياجاتنا النفسية ؟ وإذا لم تستطع هل في امكانها ان تفعل ذلك في المستقبل ؟ لقد تركت جميع هذه المحاولات استياء في نفس القارىء العربي ، ذلك انها لم تف بالغرض المطلوب ، إما لكونها سقطت في الاتهام المجاني لفئة معينة من المجتمع ، وإما لكونها حاولت ان تتغلغل في ابعاد القضية ففشلت . واغلب الظن ان هذه الفكرة الأخيرة هي الصائبة . فالقصائد التي أعطيت كانت كلها غارقة في الرمز والغموض . وواضح أنه لم يعد مكان اليوم للغموض ، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بأدب المقاومة ، ادب يفترض المباشرة والوضوح في غير اسفاف (١) . فمنذ النكسة وحتى قبلها كنا ننتظر تلك المارسيز التي ستطير من شفة الى اخرى ، وتتغنى بها الجماهير ،

---

(١) ربما كانت محاولات نزار قباني في المستوى ، الا انها كانت تعتمد الانفعال في الوقت الذي يجب فيه ضبط النفس .

وتُرددها النساء والأطفال والعمال والفلاحون . ولكن المارسيز ظلت غائبة طوال هذه المدة . لقد قتلها الغموض ، وقتلها الرمز ، وقتلتها « الحكمة الخاطئة » . إن سر فشل الشعر ، هو في ذلك التصميم المسبق للقصائد ، في ذلك الاتهام المجاني ، وتلك الادانة التي جاءت هكذا سطحية ، بسبق اصرار .

كان على الرجل الشعبي العربي أن يرفض ذلك الشعر وان يتجاوزه ، وينظر الى الشاعر على انه شخص غير مرغوب فيه ، وانه واحد من « الكماليات » . فالضروريات اليوم الى جانب الخبز ، هي الحرية والكرامة ، التي نلخصها في استعادة الثقة بالنفس ، وبالوحدة ، وبالعروبة . وبالمثل فان القصة لم تؤد الدور المطلوب . لقد ترك المجال لقصاصين فاشلين ، استطاعوا أثناء غياب القصاصين الحقيقيين ان يفرضوا أنفسهم كأدباء مقاومين . وهنا فقط نستطيع ان نتساءل : ما سر غياب القصاصين اللامعين ؟ هل هي فكرة تجريد الأدب من أي التزام ؟ إن هذه مسألة قديمة فيما أعتقد ، ومحاولة اثارتها شيء قديم كذلك . ولكن مع ذلك فالشيء الذي يستدعي الانتباه ان هنـــاك قصاصين استطاعوا ان يفرضوا ذواتهم ككتاب جادين ، واستطاعوا ايضاً ان يوفقوا بين القيمة الفنية للعمل الأدبي وبين المضمون القصصي .

وأشير هنا بكل وضوح الى غسان كنفاني صاحب « رجال في الشمس » و « عن الرجال والبنادق » . لقد أعطى المسألة الفلسطينية أهمية كبرى ، ولقد حقق مع ذلك تطوراً ملموساً في تناول الموضوع ، واحتفظ بالنزعة التجديدية في المعالجة الفنية .

لقد تناولت قصصه القضية الفلسطينية ، وعبرت عن تاريخها منذ ١٩٤٨ حتى الآن . كل ذلك جـــاء بعيداً عن الخطابية وعن الإسفاف والتحقيقات

الصحافية . إذ ان أغلب القصص التي كتبت من هذا النوع كانت تسقط في الوثائقية، وكانت تتحول الى ريبورتاجات تستدر عطف الرأي العام او تنوه بالبطولة العربية، في افتعال تام .

أعتقد انه اذا كان من الرائع حقاً ان يلتفت أدباؤنا اليوم ، وبكل إلحاح، الى هذه الانتفاضة التي اشتدّ أوارها ، فان عليهم قبل كل شيء التخلص من الانفعال الجريح ، والنظر بعين ثاقبة الى الأمور . إن الأديب الحق ، هو من يستطيع ان يجعل الرجل الشعبي واثقاً به ، مكلفاً إياه الدفاع عن قضيته . وقد يتساءل أحد السؤال القديم : هل يستطيع ان يفعل الأديب شيئاً ذا بال أمام الانتفاضة التي يحققها الرجل الشعبي اليوم ؟ أقول : نعم . ان ذلك يأتي بالتدريج . فكما يقول كلود روا : « ان أي مسرحية او أي رواية ليس لها تأثير سهل الإدراك مثلما هو الشأن للصدى الذي يخرج من مكبر الصوت صائحاً : المسافرون الى بوردو ، من رصيف رقم ١٤ ، انتبهوا ، حان وقت السفر »(١) .. ان مهمة الأدب تتحدد بالتدريج ، لا في دقيقة او دقيقتين كما هو مفعول رصاصة انطلقت من بندقية او مسدس . الأدب يؤدي دوره ببطء ؛ ثم إن فعاليته جد قوية ، ولا يمكن لأيّ أحد ان ينكر ذلك . غير ان السؤال الملح الآن هو : كيف نجعل من أدبنا أدباً مدافعاً بمعنى الكلمة ؟ هل يسلك الطريق التي سلكها قبل النكسة فتكون النتيجة كما شاهدنا ؟ أم يحاول ان يجدد في مفهومه ؟ .

لطالما انتظرنا بفـــارغ الصبر ، ونحن اليوم في المعمعة ، ان تثار قضية فكرية من هذا النوع . لقد وقعت النكسة ، وبسرعة فائقة استفاق منها الانسان العربي على أمل موعود .. غير ان المثقف مازال يبكي وينوح . مازال يحن فظيع

---

(١) دفاع الأدب . ص ٧٩ و ٨٠ .

يلصق التهمة بغيره ، مازال يبحث عن أسباب غير موجودة للنكسة ، وكان الثقافة العربية بتاريخها الطويل كانت غارقة فقط في سلبيــــة مقيتة . إن قضيتنا الكبرى اليوم هي الدور الرئيسي للكاتب شاعراً كان او قصاصاً ، تجاه معطيات حاضر جديد ، مليء بالأمل والوعود . لم يعد للبكاء والرثاء مجال . فالوقت اليوم هو وقت القصيدة ــ الرصاصة ، او القصة ــ الرصاصة ، او اللوحة ــ الرصاصة ، على أقل تقدير .

الشعر والبروليتاريا

حديث عن الشاعر آكوبيان

جليل كمال الدين
- موسكو

- ١ -

آكوب آكوبيان، الشاعر الأرمني السوفيتي الشهير (١٨٦٦ - ١٩٣٧) هو ليس شاعر أرمينيا فحسب، بل هو، الى ذلك، شاعر البروليتاريا السوفيتية، بل وكل البروليتاريا في العالم.

نشأ هذا الشاعر في عائلة راع، عامل زراعي في قرية (تاليش). وقد فصل من الدراسة منذ الصف الخامس الابتدائي بسبب فعالياته الثورية. وقد تقلّب في غمرات الحياة

كادحاً ، وعاملا ، وموظفاً في البنوك في تفليس وباكو ويرفان ، وصنع نفسه بنفسه ، مناضلا في الجبهات الثلاث : جبهة العمل ، وجبهة الثورة ، وجبهة الادب. وكان مجداً لكل ماوراء القفقاس ، ولكل جمهوريات القفقاس السوفيتية (ارمينيا، جورجيا ، اذربيجان) التي تحتوي متاحفها وأكاديمياتها شواهد وذكريات ومذخورات من أعمال وحياة هذا الشاعر البروليتاري الكبير ، الذي أطل على العالم والحياة في تاسع وعشرين نوار ١٨٦٦ .

وقد تعرض الشاعر مرات كثيرة للسجن والاعتقال والفصل والابعاد، بل وحتى الضرب المبرح في العهد القيصري ، وفي فترة حزب التدخل والفعاليات المنشقة ، والعدوة المضادة للسوفيت . وقد كتب وحرر في سائر الجرائد والمجلات الثورية السرية ، والعلنية فيما بعد ، في سائر جمهوريات ماوراء القفقاس السوفيتية . وتذكرنا حياته وماتعرض له ، بحياة مكسيم غوركي ، الكاتب السوفيتي العظيم . فهو مثله نشأ كادحاً ، وتلقى تعليمه ودروسه من فم الحياة مباشرة ، وتثقف ثقافة رصينة ذاتية ، متعرضا لسائر الوان الاضطهاد ، والجوع ، والعذاب .

وقد كانت « أغاني العمل » التي يكتبها آكوبيان موضوعا مجدّ فيه نقاد وشعراء القفقاس وأرمينيا المعاصرون موهبة الشاعر المعقدة. فمثلا حين صدر كتاب الشاعر الأول ، محتويا قصيدته التي استلهم فيها حياة المصانع : « الصبح الجديد » ، لم يتمالك اناس معروفون في عالم الأدب والفن في القفقاس ، امثال سورين سبانداريان وستيبان شاومنيان من امتداحها وتقريظها بما تستحق .

اننا لن نستطيع ، في هذه المقالة ، تتبع كل فعاليات الشاعر الثورية قبل عهد اوكتوبر وبعده ، والا لاحتجنا الى كتاب مستقل . ذلك ان حياة هذا الشاعر الضخمة هي لوحدها كتاب كبير في دروسها وعبرها ومردودها

بالنسبة الى قضية الثورة واوكتوبر وشعب ارمينيا والقفقاس، وسائر البروليتاريا. فلقد نشأ الشاعر في احضان الطبقة العاملة، وبزغ في ظروف الشغيلة القاسية بوهية رائعة احترمها كل معاصريه، وكل الاجيال التي واكبته والتي أتت بعده. لقد شارك هذا الشاعر وحضر لكافة الاضرابات والمظاهرات في القفقاس في العهد القيصري منذ الربع الاخير في القرن التاسع عشر حتى ميلاد ثورة اوكتوبر المجيدة. وقد شارك في ثورة ١٩٠٥ التي كانت هي وثورة شباط ١٩١٧ — التي شارك فيها الشاعر بنشاط ايضاً — من التمارين الثورية لثورة اوكتوبر ذاتها التي اقامت السلطة السوفيتية والاشتراكية في سدس الكرة الأرضية.

- ٢ -

كان هذا الشاعر تجسيماً لتفاعل عضوي حي للعمل والثورة والفن، فكان هو بحد ذاته قصيدة رائعة للحياة في حرقها وشموخها، وللانسان وهو يفتح ويهب كل طاقاته لأخيه الانسان والوطن ولقضية الثورة. وحين انطلقت ثورة اكتوبر لم تخفف مشاغل واعمال هذا الشاعر وانما ازدادت، فقد كان مطلوباً منه ومن رفاقه في القفقاس ان يرصنوا ويوطدوا الثورة التي اجتاحت تلك المناطق وانتصرت عبر كثير من التضحيات. لقد عين الشاعر قوميسار البنوك تفليس. وكان عضواً في هيأة تحرير «النجمة الحمراء» ثم مسؤولا اساسياً عنها. وفي عام ١٩٢٢ كان مؤسساً ومحرراً للمجلة البروليتارية الشهيرة «الحداد»، وعضواً في ادارة عصبة الكتاب البروليتاريين في ارمينيا، ومديراً وعضواً في هيأة تحرير «الفتيات الحمر». وقد كانت قصائده واشعاره تظهر بلغات ماوراء القفقاس الرئيسية الثلاثة: الأرمنية، والجورجية، والاذربايجانية. وكوفىء الشاعر في حياته ومجد بما يستحق في كافة الجمهوريات القفقاسية وعلى صعيد الاتحاد السوفيتي. وقد ظهرت

اشعاره بالروسية في عام ١٩٢٨ في كتاب مستقل ، شارك في ترجمة الاشعار امثال (ديميان بيدني) و (بيزيمنسكي) و (جاروف) ، وكتب مقدمته رجل الأدب السوفيتي الشهير لونا جارسكي . وبعد ذلك توالت ترجمات اشعاره بالاوكرانية ، والألمانية والفرنسية .

وانها لتأسر اللب حقاً كلمات الشاعر في سيرته الذاتية ، قبل خمس سنين من وفاته ، حيث كتب يقول في ختام سيرته كما كتبها هو : « .. لقد صممت أن أموت في عملي الأدبي . محتضناً بيدي رايتي الأدبية الحمراء : ريشتي الفولاذية » .

* * *

ان هذا الشاعر الواقعي الاشتراكي لم يولد شاعراً ، وانما تطورت موهبته الشعرية ونضجت عبر مسافة زمنية ليست بالقليلة ، ومن خلال مشاركاته النضالية ، وعبر حياته العملية . وكما قال هو عن نفسه انه كان مناضلا في الجبهات الثلاث : العملية (حيث كان يكدح ويعمل) ، والثورية (كمناضل ثوري منظم) ، والادبية (كشاعر) . وفي كلمته التي توجه بها الى الكتاب الشبان (التي نشرت في العدد الاول من مجلة « الجيل الادبي » في ١٩٣٥) والتي حملت عنوان « كيف اصبحت أديباً » ـ وهي تذكر بكلمة مكسيم غوركي واحاديثه الى الادباء الشبان في مثل هذا الموضوع ـ اكد أن كوبيان ان توفر الموجه هو الاساس ، ولكن ذلك لا يكفي من دون إعداد ومراس ومرانة قلمية وشعرية . فمثلا هو الشاعر الكادح والذي لم يتلق تعليماً جامعياً ، كان مضطراً لان يكثر من قراءته للكتب والمجلات وللتراث العالمي ، ما استطاع ذلك وما أسعفه الوقت ، وكان ملزماً ان يحتفظ بدفتر مذكرات ويوميات ـ على طريقة مايكوفسكي ـ ليسجل انطباعاته وتطبيقاته ، بل حتى ملخصات الكتب التي يقرؤها . لقد كان الشاعر يقرأ آناء الليل واطراف

النهار . فالثورة بالنسبة له هي ثورة في كافة الحقول ، وقد آلى على نفسه ان يعوضها ماحرمته شروط العهد القيصري بالمزيد من القراءة والدراسة الذاتية ، فقرأ ـ وهو المضطر الى التخفي والكدح ليعيش ، من دون ان ينقطع عن فعالياته الثورية المختلفة ـ قرأ الفيلسوف سبنسر ، وروسو ، وبرودون ، وتشرنيشيفسكي ودوبروليوبوف ، ونالبانديان وآخرين .

ولكن شاعرنا لم يكتف بذلك بل انه « بموازاة ذلك وسوية مع القراءة درس الحياة ، كما يقول في كلمته التي أشرنا اليها آنفاً . هذه الدراسة للحياة هي درس لكل الشعراء والفنانين ، فهي تعني اللصوق بالحياة ، والاستماع الى صوتها الضخم العميق ، وعدم الانفصال عنها ، انها تعني الواقعية ، ومزيداً من الحيوية والاصالة والانسانية الشعرية الشفافة التي تبلغ القلوب والأفهام . يقول آكوبيان : « لقد كنت ألاحظ يومياً حياة جماهير العمال في الشروط الشاقة لظروف ذلك العصر » . وكان الشاعر في ملاحظته هذه مشاركاً للحياة ، عاملاً شغيلاً ، فهو ليس يتأملها من فوق ، وانما يعيشها بصفته شغيلاً كادحاً بيديه . كان يسمع ضجيج الآلات ، ويرى ويتعرض هو نفسه الى الدهن والأوساخ والتراب وسائر مايقدمه العمل ، في آبار البترول مثلاً في باكو ، أو مصنع « كارابيتيوف » الضخم في تفليس ، وسواه . ونتيجة لذلك ـ او لنقل من احدى نتائج هذا ـ بزغت عنده موضوعة العمل ، التي مجدها آكوبيان بكل قواه ، منذ مقطوعتـــه الشعرية : « الشرف والعمل » الى « أغاني العمل » . وقد كتب هو يقول في كلمته التي أشرنا اليها آنفاً : « لقد أحببت العمل لا لأنه أساس وجود الانسانية ومصدر سعادتها فحسب ، بل وايضاً لأن العمل ، في مفهومه الحقيقي ، يمتلك شعريته الخاصة به » .

مثل هذا التوجه الى الحياة اسعف آكوبيان وساعده ، كما ساعد كثيراً

من الشعراء الكادحين الواعين ، في النضوج الأدبي والثوري والفني . لقد كان الشاعر يؤكد باستمرار على الأصالة والأحساس الحقيقي غير المفتعل ، فكان يقول مثلا : « لقد تمسكت دوماً بوجهة النظر التي تقول ان أيما شعر ينبغي ان يكون مشبعاً بعاطفة صادقة مخلصة ، وان يشعّ الدفء ؛ والا فانه سيكون شبيهاً بولد جهيض . وليس الا ذلك الابداع الذي يلهم القراء أفكاراً سامية رفيعة تتجاوب مع مطامحهم وتدفعهم نحو اجتراح المآثر البطولية ، ليس الا ذلك الابداع مايمكن ان يكون ملكاً للشعب .

وبمثل هذا المفهوم الأصيل لوظيفة الشعر والعملية الادبية ، استطاع آكوبيان ان يتألق لاجيال شاعراً للطليعة الكادحة وشاعراً للوطن السوفييتي والبروليتاريا .

٣

ان تطور فعاليات آكوبيان الشعرية في عهد او كتوبر كان حصيلة لمرانات وممارسات ومراحل تطور فعاليات آكوبيان كشاعر ومناضل وكادح في فترة التحضير لاوكتوبر .

ان تمجيد الشاعر لموضوعة « العمل » كان ، كما قلنا سابقاً ، منذ زمن بالغ العراقة فهو منذ ١٨٩٥ يكتب في مقطوعته « الشرف والعمل » مثل هذا :

كنت لا أزال طفلاً

حينما قال لي أبي ، وقد أحنى العمل ظهره ،

وعلمني أنه في العالم

ثمة كلمة مقدسة هي « الشرف »

وحين ابتدأت أقرأ الكتب
قالت لي أمي - مرة -
ان طريقي في الحياة سيكون عسيراً
وانه سيكون علي أن أحب « العمل »

* * *

لقد قضيت بضع سنين فحسب في المدرسة
فلفقير مثلي ليس هناك مكان
وبتوجيه من أبي
صرت صانع حدّاد

* * *

ومنذ ذلك الوقت تضرب مطرقتي الثقيلة
ويتفصّد العرق الحار مني ،
وتمضي الأيام الصعبة ،
لكنني لا ازال أتذكر كلمتين « الشرف » و « العمل »
و « العمل » و « الشرف » .

ان هذا الحب للعمل ، وهذا الفهم له ، منذ ذلك العهد الباكر ، حقّقظ للشاعر عافيته الروحية — وألهم شعره حساً واعياً سليما جعله يؤمن بفوز الشغيلة ، وانتصار قضيتهم ، مهما توالت العذابات والاضطهادات . فهو مثلا في عام ١٩٠٥ يتوجه الى العمال باغنية « حداد » التي يقول في آخرها :

اضرب ، ايها الرفيق ، مرة اخرى بقوة !
وانظر : هاهي المحن تولي
وتمضي الى الأبد ظلمات الليالي
ويقترب يوم النصر !

وفي هذا العام ١٩٠٥ ، العام الذي تصاعدت فيه الموجة الثورية في عموم الروسيا ، والتي قابلها جلاوزة القياصرة بمزيد من الاضطهاد (إرهاب ستولبين الشهير في التاريخ) ، كان الشاعر يقول في قصيدته « عالمي » التي حدّد بها موقفه بمنتهى الجلاء :

أنا هناك ، حيث أحزان الشعب وحرمانه ،
حيث الانسان ، ملتاعاً ، يترقب الخلاص »

وكان يتوجه الى برجوازيي روسيا وكل البرجوازيين بمثل هذا الشعر (مقطوعته «الى البرجوازيين ») عام ١٩٠٥ ايضاً :

« وليس بوسعكم بأيما شيء في العالم ، أن تصدوا هذه القوى ،
وعليكم ان تقدموا الجواب أمام هذا الآتي الوشيك ! »

وكان هذا الآتي الوشيك هو اوكتوبر المجيد .

نعم لقد ذبح البرجوازيون في روسيا كثيراً من العمال في ١٩٠٥ – ١٩٠٧ ، وحاولوا نشر إرهاب ابيض ابدي ، الا ان الثوار واصلوا تمريناتهم ولم يحفلوا بالتضحيات ، « فالذين ماتوا ، لم يضيعوا » على حد قول مناشير ذلك الوقت ، وكما قال آكوبيان في مقطوعته (في ١٩٠٦) بعنوان « ماتوا ولكن لم يضيعوا » :

« ستنتصر القضية العادلة !

لقد وهبوا حياتهم للشعب ..
وسقط الابطال ..
ولكنهم لم يضيعوا أمام اخلافهم والأجيال الآتية !

وهتف الشاعر بقوة في مقطوعته « الى البروليتاري » مؤكداً ان الغد للبروليتاريا . وقد جاء اوكتوبر في ١٩١٧ فكان مصداقاً لصيحة كل شاعر ثوري بهذا المعنى :

« وإني لأمجد من الآن غدنا
هذا الوشيك الآتي الينا !
فثقي ، اذن ، وانتصري ايتها الطبقة العاملة ! »

كان الشاعر يؤمن بالحياة ، وبانتصارها ، وبانتصار العمل والشغيلة ، ففي اعوام ١٩١٠ — ١٩١٣ التي ارتد فيها البعض عقب القضاء الوحشي على ثورة ١٩٠٥ ، كان الشاعر يرى ان الحياة هي التي تنتصر ، وماهذه الهزائم سوى امور طارئة ، عارضة . إن صوت الشاعر هنا صوت عميق ، وليس بالصوت الساذج . انها حكمة الشرق ، وحكمة البروليتاريا وقضيتها :

« في كل مكان ، وحينما توجهت ، فالحياة ، حتى في المأتم الحزين تأخذ قصب السبق ..
ويتقهقر الموت أمام قوة الحياة
وتمضي الحياة قدماً في كل فتنتها المشمسة »

وقد مضت الحياة فعلاً وهي لاتملك الا المضي الى أمام ، فجاء اوكتوبر وانطلق الشاعر يمجد مؤسس اول دولة اشتراكية في الارض ، ممجداً فيه الثورة (مقطوعته بعنوان « لينين » في ١٩١٩) :

« امام صورته وقفت
أتطلّع وأتأمل ، دون أن أُحَوّل عيني ،
فأرى في قسَمَات وجهه ، وأفهم ،
مخايل العبقريّ ، والمناضل ، والزعيم .. »
الى أن يقول :
« انه ينظر بسخرية الى العالم القديم ،
وتقول نظرته الهادئة :
إنك لن تنهض ، مرة اخرى ، من الارض
فانك زائل ، وقد قرأ الحكم بالموت عليك »

وفي عام ١٩٢٠ ، وامام ذكرى الستة وعشرين قوميساراً شهيداً ، ممن قضى عليهم الاعداء في باكو ، انطلق الشاعر بمقطوعته « كانوا ستة وعشرين » التي أكد فيها الشاعر ، مرة اخرى ، ان الشهداء يسقطون ، ولكن قضيتهم لاتسقط معهم ، انها تحيا وتتألق بالتضحية ، وهي تدعونا أبداً ، الى النضال :

« وأخفى الليل الجلادين .
وفيما كان الستة والعشرون ، وراء عتبات الظلمات
قد تعانقوا ، كأصدقاء حميمين ، في رمال (آفجار قويمي)
كان نشيد النضال يصدح لنا .. ويدعونا الى النضال » ..

وقد بكى آكوبيان لينين (في مقطوعته «لينين خالد ») أحرّ البكاء، معلناً ان قضية لينين لم ولن تموت ، وإن مات جسده :

«لايصدق القلب ان لينين قد مات .
قل لي ، من يستطيع ان يصدق ان الشمس تموت ،

او ان المحيطات تتوقف عن التنفس ،
او ان مارس البعيد
يطفيء سناه
او ان الوقت يمسح جبال الهيمالايا ..؟
لكن قضية لينين خالدة :
« ان قضية لينين هي كالشمس تتألق .
وافكاره عميقة كالبحار .
ان وصاياه تنير لنا الطريق ،
وهي كالجبال لاتنفصم عراها
وسامقة هي كالنجوم .. »

وقد كان الشاعر أمميا ، وكان يناضل في كل جبهة ، وقد ارتبطت حياته بجمهوريات القفقاس الثلاثة (ارمينيا ، وجورجيا ، واذربايجان) ، اوثق الارتباط . انه يجد يرفان (عاصمة ارمينيا) كما يجد باكو (عاصمة اذربايجان) وتفليس (عاصمة جورجيا) . ان هذه المواطن والربوع لحبيبة أبداً الى قلبه . والحق انه يجد الوطن السوفيتي وسلطة اوكتوبر ، واجداً فيها تجسيم آمال الكادحين :

« ليس لوطننا سوى ثلاثة عشر عاماً
ولكنه قد نهض كشجرة حور شامخة
فلتتمجد ، ايها الشعب الحر العظيم ،
أنت ياحزبنا ، وأنت ايتها السلطة السوفيتية !»

(من مقطوعة في « يرفان » عام ١٩٣٣ ، وقد مرت عشرون عاماً على اقامة السلطة السوفيتية في ارمينيا)

لقد كان الشاعر تجسيداً لوحدة ديناميكية حية ، هي وحدة العمل والشعر ، وحدة اليد والرأس ، وحدة المطرقة والريشة . وليس أروع ، في هذا المعنى ، من ان نسمع « وصيته » التي كتبها منذ ١٩٢٠ :

« لتضطجع الريشة على حجر قبري
جنبا الى جنب مع المطرقة ، في وحدة لاتنفصم .
ذلك اني كنت أول من ضرب في خضم العاصفة القديمة
بالريشة والمطرقة .
ان الحياة هي سندان . والريشة
بالنسبة للشاعر مطرقة جبارة في النضال .
وهكذا فلتزيّن هذه الحلية
ولتدفىء قبري البارد ! »

الظاهرات الاقتصادية

عند ابن خلدون

بقلم يحيى عرودكي

إن يقظة أي شعب وتطلعه نحو استعادة امجاده ، وصيانة شخصيته ووجوده من الضياع ، تدفعه بالضرورة لتلمس جذوره ، والكشف عن خفايا تاريخـــه ، والبحث عن تراثه الفكري والثقافي وماقدمه للحضارة الانسانية من آيات رائعة ومنجزات ومبتكرات في ميادين العلم والفن والتجديد . والقطر العربي السوري ، الذي درج منذ تسع سنوات على اقامة اسبوع للعلم في كل سنة ، وعلى احياء وتخليد ذكرى احد الأعلام العرب كابن رشد والجـــاحظ ،

انما يهدف الى دعم الخطوات التي تبذل في اطار البحث والتنقيب عن التراث العربي، وتشجيع النشاطات التي تصدر في هذا السبيل على مختلف المستويات وفي جميع الوجوه، حتى تواكب مسيرته في التقدم والتطور في المجالات الاجتماعية والاقتصادية وسائر المجالات الاخرى، وتطلعاته نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة.

وما من شك أن ما حققه المفكر العربي ابن خلدون في ميدان الفكر والفلسفة، وماسبق اليه غيره من المفكرين في الشرق والغرب، جدير بأن يكون موضع اهتمام ودراسة الباحثين في هذه الحقبة من تاريخ أمتنا العربية، ذلك انه مهما تعاقب علماء الاجتماع في التاريخ فسيبقى ابن خلدون أول منشىء لهذا العلم. فلقد استطاع بذكائه المتوقد وقوة ملاحظته وصفاء ذهنه ودأبه على التحصيل والانتاج، أن يقرر ضرورة قيام علم الاجتماع الذي دعاه في كتابه المسمى (كتاب المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) بعلم «العمران» على الأسس التالية: الشرح والتحليل وتعليل الحوادث.

ولقد استطاع ابن خلدون بهذا الاسلوب وتلك الميزات التي يتحلى بها ان يقدم نظريات فريدة في الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لم يسبقه اليها مفكر، ضمنها كتابه الذي تعتبر مقدمته المعروفة باسمه من اهم اجزائه.

لقد ادرك ابن خلدون – وهو الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي – ارتباط علم الاجتماع بعلم الاقتصاد، وذلك قبل غيره من علماء الاقتصاد الذين أشاروا الى هذه الحقيقة في القرن الثامن عشر. فلقد اعتبر ابن خلدون «في مقدمته» الضرورة الاقتصادية – وهي التي عبر عنها بالكسب والمعاش والصنائع – دعامة

من دعائم نشأة المجتمع ، ثم درس في ضوء ذلك الظواهر الاقتصادية المتعلقة بالعرض والطلب والمبادلات التجارية والانتاج والتصنيع ...

إلا ان دراسة ابن خلدون لهذه الظواهر انما كانت تصدر عنه بصفته عالم اجتماع مدقق ومتفحص يهمه ان يقيم علم الاجتماع على أسس جديدة بعيدة عن الارتجال والخطأ . فهي اذا لم تصدر عن عالم اقتصاد ، ومع ذلك فاننا نجده يقرر عدة قواعد اقتصادية هامة في التجارة والصناعة والزراعة لم يتسن لغيره التطرق اليها في البحث والاثارة إلا بعد عدة قرون من عصره .

الأسس التي اعتمدها ابن خلدون في تقرير تلك الظواهر :

قرر ابن خلدون نتيجة دراسته لتاريخ العالم وخاصة الدولة الاسلامية ، وما شاهده خلال أسفاره ورحلاته العديدة واتصاله بالشخصيات الكثيرة ، ثم من خلال ملاحظاته اثناء تقلده لبعض الوظائف، او معاصرته لبعض الاحداث الكبيرة في التاريخ العربي ، ان الظواهر الاجتماعية في العالم لا تسير حسب الاهواء والمصادفات ولا وفق ارادة الافراد ، بل وفق قوانين مطردة ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الاخرى . فهو لذلك يعمل ماوسعه الجهد وتسوعبه الطاقة الخلاقة لديه لتفسير مبادئها وتحليها والكشف عن العوامل المؤثرة في نشأة المجتمع وتطوره . وهو يستخلص من ذلك كله ان تلك الظواهر سريعة الحركة والتطور .

وبذلك يكون ابن خلدون قد انطلق في تفكيره — منذ القرن الرابع عشر — بالتعبير عن تلك الظواهر بما يعبر عنه في المصطلحات العلمية الحديثة بـ « الاستاتيك » و « الدنياميك » . فهو من جهة اقام ابحاثه على اساس دراسة الظواهر في الحالة التي عليها في مكان وزمان معينين وهو ما يعبر عنه « بالاستاتيك » ،

ومن جهة أخرى يدرس في نفس الوقت تطورها والنواميس التي تخضع لها في هذا التطور وهو مايعبر عنه « بالديناميك » . وتبعاً لذلك فقد اعتمد القواعد التالية في ابحاثه :

١ – الملاحظة المباشرة والتجربة   ٢ – تفسير الظواهر وتحليلها
٣ – استخدام منطق المقارنة ، أو ما يسمى بالعلم الحديث بمنهج البحث المقارن
٤ – التمحيص وقياس الاخبار على اصول العادة وطبائع العمران   ٤– دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية .

وهكذا نلمس ان ابن خلدون عندما يتحدث عن الظواهر الاقتصادية ، باعتبارها دعامة من دعائم نشأة المجتمع ، انما يعتمد اصول البحث العلمي بما لايقل عما اعتمده ويعتمده غيره من علماء الاقتصاد في العصر الحديث ، وهو لا يقرر في حال من الأحوال إلا تبعاً لتلك القواعد التي الزم نفسه بها في البحث .

نظرة ابن خلدون الى الزراعة :

لايسع الباحث وهو يطالع ماقرره مفكر العرب الكبير حول الزراعة – الفلاحة كما يسميها هو – إلا أن يقدر سبقه لغيره من علماء الاجتماع والاقتصاد المحدثين الذين اعتبروا الزراعة مهنة المعذبين في الأرض ، الكادحين للحصول على مايهيء لهم قوت يومهم ، الذين يشقون ويتعبون ليقدموا للآخرين نتاج كدحهم وجهدهم وعرقهم آخر الموسم ، لأنهم مستضعفون ، مستغلون من قبل المترفين أسياد الأرض وملاكها الذين استطاعوا أن يخضعوا الأرض ومن عليها لجبروتهم وطغيانهم ما قدر لهم ذلك . وهكذا نرى ابن خلدون يقرر قبل نحو خمسة قرون من ظهور الماركسية أن (**الفلاحة من معاش المستضعفين**) . وهو بكلمة واحدة

(الضعف) يجمل ما عمد اليه غيره من التفصيل والاطناب في تعداد الظلم الاجتماعي الذي يعيشه الفلاحون نتيجة اشتغالهم بالزراعة ، ثم هو ينتقل بعد ذلك ليبين بُعد ذوي الثراء والترف عن مزاولة هذه المهنة بانفسهم ، وهو نفس مالاحظه غيره ممن جاء بعده من علماء الاجتماع والاقتصاد كسان سيمون وفوربية وكانت وكارل ماركس وانجلز ، ومن أن مشاركة أمثال هؤلاء في الزراعة إنما يكون عن طريق امتلاك الأرض ، لمعذبيها ، لمستضعفيها . وهذا ما قصد اليه ابن خلدون عندما قال (ولذلك لاتجده ينتحله — أي الفلاحة التي هي من معاش المستضعفين — أحد من اهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة) . ولعل في هـــذا ، تصويراً بالغاً لصراع الطبقات الذي أشارت اليه الحركات الاجتماعية الحديثة ، ودعت الى القضاء على مثل هذا التميز بجعل الأرض لمن يفلحها .

ما قرره ابن خلدون في التجارة :

يعرف ابن خلدون التجارة بأنها (**محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ماكانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش ، وذلك القدر النامي يسمى ربحاً**) .

وواضح من هذا التعريف أنه لابد من توفر شروط ثلاثة حتى تنطبق صفة التجارة على العمل التجاري وهي : ١ — الشراء . ٢ — البيع . ٣ - (الربح) ، أي نمو المال المستعمل في عملية الشراء والبيع . ولعل هذا النص أوضح وأوجز تعبير لتعريف العمل التجاري وفق اليه ابن خلدون دون غيره من علماء الحقوق التجارية . مما جاء قبله بمثله ، ولم يتوصل من أتى بعده الى تعريف بديل بمثل هذا الوضوح

والايجاز . فتلك الشروط الثلاثة ، كانت ولا زالت تعتبر عناصر اساسية لها أهميتها الحقوقية ، وتعتمدها معظم قوانين التجارة المعمول بها في العديد من بلدان العالم. على أن ابن خلدون ينتقل بعد ذلك الى تبيان الطرق التي يمكن ان يتحقق بواسطتها الربح في العمل التجاري ، وهو في هذا السبيل لايكاد يخرج عن التقسيمات المعتمدة في العلوم الحديثة . فهناك التجارة الداخلية التي تقوم على شراء السلع واختزانها وتحين الظروف الملائمة لبيعها بسعر أعلى من سعر الشراء. ويشير ابن خلدون الى ذلك (**ان يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه**) . وهناك التجارة الخارجية التي تتمثل في استيراد السلع من بلد لبيعها في بلد آخر ،أوتصديرها من بلد الى آخر لبيعها بقيمة أعلى ، ويوضح ذلك ابن خلدون بقوله (**بأن ينقلها** – أي السلعة – **الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه**) . ثم ينتقل مفكرنا الكبير الى تجارة الجملة التي تقوم من أساس شراء السلع وبيعها بكميات كبيرة مقابل معدل ضئيل من الربح فيقول (الربح بالنسبة الى اصل المال نزر يسير ، **لأن المال ، ان كان كثيراً عظم الربح ، لأن القليل في الكثير كثير**) .

ثم يربط ابن خلدون بين العمل التجاري والطبيعة الانسانية ومدى تأثرها بالربح وحب المال ليخلص من ذلك الى مايمكن أن يلجأ اليه بعض المتعاملين في التجارة ممن لايتحلون بالاخلاق القوية التي يتطلبها العمل التجاري ، كأن يعمد هؤلاء الى الغش في السلع أو في الثمن أو في الوزن والمكيال ، أو أن يعمدوا الى التأخير في سداد أثمان البضاعة والمماطلة في ايفاء الحقوق لأصحابها ، مما يلحق الضرر بصاحب المال ، ويحول دونه ودون استثمار هذا المال من جديد للحصول على ما يستطيع من ربح نتيجة هذا الاستثمار . وبهذا الصدد قال ابن خلدون

(لابد في محاولة التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها . وأهل النصفة قليل ، فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الاثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه) .

ولعل هذا ما أدركته القوانين المدنية والتجارية في العصر الحديث عندما تضمنت المواد العديدة التي تعالج مثل تلك الأوضاع ، فتضع لها التعاريف وتتبعها بالمحظورات ثم بالمؤيدات والعقوبات لتضع حداً لمحاولات من كان ليس من أهل النصفة من التجار . ولايكتفي ابن خلدون بوصف طباع من يتعاطون البيع والشراء ، وانما يتعداه الى النصح واقتراح الحل للحيلولة دون الوقوع في شباك المتلاعبين من التجار وذلك بأن تسجل عمليات البيع والشراء في عقود أو بحضور الشهود ، وينبه الى ما يمكن ان يترتب من مصاعب ومتاعب لأولئك الذين يتساهلون في اجراءات كهذه . ويوضح نظرته هذه بقوله : (ومن الجحود والانكار المسحف لرأس المال ، ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة . وغناء الحكام في ذلك قليل ، لأن الحكم انما هو على الظاهر ، فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة ولايكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة ، أو لايحصل أو يتلاشى رأس ماله ، فان كان جريئاً على الخصومة بصيراً بالحسبان، شديد المماحكة مقداماً على الحكام ، كان ذلك أقرب له الى النصفة منهم بجرأته ومماحكته) . وينقلنا بعد ذلك مفكرنا الكبير الى موضوع هام تنبهت اليه الحركات الاجتماعية في العصر الحديث وهو علاقة رأس المال بالحكم وتدخل هذا لمصلحة ذاك فيقول : (وإلا فلابد له من جاه يدرع به فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من غرمائه) .

ويعود ابن خلدون في مكان آخر من مقدمته ليحدثنا عن التعامل التجاري وأصوله وما اعتاد أكثر التجار أن يتخلوا به من المداورة والمحاورة في تعاملهم ثم يلجأ اليه بعضهم من اتباع طرائق بعيدة عن الأخلاق القويمة التي يتحلى بها عالية القوم وكرامهم واشرافهم ، مما يجعل العمل التجاري في مثل هذه الأحوال غاية في الانحطاط الخلقي ، ويكون سبباً في ابتعاد ذوي النفوس الطيبة عن امتهان التجارة حتى يتحاشوا الوقوع في مثل تلك المزالق ، ومع ذلك فانه لايطلق هذا الحال على جميع المتعاملين بالتجارة، إذ ينزه بعضهم عن تلك الصفات الذميمة لما يتحلى به من الشرف والكرم ، إلا أن هذا البعض قليل . وفي هذا يقول :

(ان التجار في غالب أحوالهم انما يعانون البيع والشراء ، ولابد من المكايسة ضرورة . فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها ، بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والاشراف واما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلابة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً . فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف . ولذلك نجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يكسب بهذا الخلق ، وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله الا أنه في النادر بين الوجود .

ويتحدث ابن خلدون عن انواع السلع التي يتعامل بها التجار ليحصلوا عن طريق بيعها وشرائها على الربح دون ان يكون فيها الكساد والفساد ، وهو بذلك يتحدث حديث العليم بالسوق والأسس التي يسير بمقتضاها التعامل فيها ، وهو ما قرره في وقت متأخر علماء الاقتصاد كادم سميث وجيد وكارل منجر وكلارك وكارمر وغيرهم في نطاق ابحاثهم عن قانون العرض والطلب ، فيقول :

(التاجر البصير بالتجارة لاينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه) (وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها) (وانما يكون الناس أسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف ، فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها) .

ويشير بعد ذلك مفكرنا العظيم الى أهمية التجارة الخارجية والفوائد التي يحصل عليها العاملون فيها ، ويؤكد على المنافع من اكتشاف الأسواق البعيدة مما لم يسبق الى التعامل معها الا القليل من الناس من أصحاب الكفاءة النادرة ، وهو ما سارت عليه الدول الكبرى بعده ، فقد جاب تجارها الشرق والغرب بحثاً عن مثل تلك الأسواق التي يحقق لهم اكتشافها والحصول على منتجاتها النادرة الثروة والغناء ، فكان أن شهد التاريخ الاستعمار القديم للهند ثم لبلدان اخرى في آسيا ثم في أفريقيا وكذلك في الهجرة الى الامريكيتين ، ومايزال العالم يشهد في العصور الحديثة كيف تسعى الشركات والبيوتات التجارية في العديد من الدول المتقدمة لتصدير منتجاتها الى البلدان التي يكون فيها بيع منتوجاتها اكثر فائدة كوجود انحصار لها او قيود على التجارة فيها ولا يستطيع غيرها ان ينفذ منها بسهولة او غير ذلك من الظروف والاسباب المماثلة . وفي هذا قال ابن خلدون (نقل السلع من البلد البعيد المسافة او شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة الأسواق ، لأن السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها، واذا قلت أو عزت غلت أثمانها، واما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالأمن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ، وأما المترددون في الافق الواحد ما بين أمصاره وبلدانه

فقائدتهم قليلة وأبارحيهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها) .

ولا يقل تفهم ابن خلدون لموضوع الاسعار وعلاقتها بقانون العرض والطلب عما اتت به النظريات الحديثة من حيث توازن العرض والطلب واثر السعر على الطلب او اثر هذا على ذاك او اثر العرض على السعر ، او حول السعر المتوازن الثابت او المؤقت ، الى آخر ما هنالك من ابحاث بهذا الشأن فيقول : (اذا استديم الرخص في سلعة او عوض من مأكول او ملبوس او متحول على الجملة ، ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فيه فسد الربح والناء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف ، ولم يحصل التاجر على الغناء ، فقعد التجار عن السعي فيها وفسدت رؤوس أموالهم ، واعتبر ذلك أولاً بالزرع ، فاذا استديم رخصه كيف تفسد أحوال المحترفين به بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونزارته أو فقده فيفقدون الناء في أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة . وكذا الغلاء المفرط أيضاً ، وربما يكون في النادر سبباً لناء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته . وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق) .

ابن خلدون والصناعة :

على الرغم من ضعف الحياة الصناعية في عصر ابن خلدون وبدائيتها ، وعلى الرغم من ان الثورة الصناعية التي واجهت العالم بعد وفاة مفكرنا الكبير بنحو خمسة قرون بالكثير من التطورات، وما احدثته من التغيير والتبديل في الكيانات الاقتصادية لعديد من دول العالم ، وما اوجبته من التطور في العلاقات الاجتماعية مما قام بمعالجته العلماء والمفكرون فيما بعد ، فاننا نلاحظ ان ابن خلدون قد اعطى للانسانية بهذا الصدد كثيراً من الأفكار الخلاقة والمبدعة مما لايزال له

الأثر البارز في العديد من النظريات الحديثة في هذا المجال . يقول ابن خلدون في تحديد ماهية العمل الصناعي : (الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس ، والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة اوعب لها وأكمل ، لأن المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكوره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته ، وعلى نسبة الاهل تكون الملكة . ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر ، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته) . ولعل في صراحة هذا القول ما يغني عن كل شرح وتفصيل ، ولعل فيه ايضاً وضوح ما بعده وضوح في تقرير امور لم يتوصل اليها من بعده الا بعد عناء وابحاث واسعة عديدة .

ويقرر بعد ذلك ابن خلدون نظرية عامة في ميدان الصناعة عندما يميز بين نوعين من الأعمال الصناعية (البسيط والمركب) وما يتعلق بكل منها من حيث الأولوية والأهمية في الحياة الاقتصادية . (الصناعة منها البسيط ومنها المركب . والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكماليات ، والمتقدم منها في التعليم هو البسيط ، لبساطته أولاً ، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوافر الدواعي على نقله) .

ثم ينتقل ابن خلدون بعد ذلك الى تبيان اهمية الاختراع والمخترعات وكيفية حصولها ، فيقرر بهذا الشأن أموراً تشهد بنفاذ بصيرته وسعة علمه واطلاعه اذ يقول :

(ولا يزال الفكر يخرج أصنافاً ومركباتها من القوة الى الفعل

بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل ، ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان واجيال ، اذ خروج الأشياء من القوة الى الفعل لايكون دفعة ، لاسيا في الامور الصناعية ، فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأبصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها الا البسيط ، فاذا تزايدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل) .

وفي حقل التقدم الصناعي وما يقدمه من الفوائد العديدة سواء من حيث اكتمال الصناعة أو جودة منتجاتها او من حيث تطور البلدان وأثره على رقي الصناعة فيها وازدهارها او انحطاط مستواها نتيجة قصورها عن بلوغ مرحلة التطور الصناعي ، فان ابن خلدون ينحو منحى عقلانياً تؤيده حقائق الأحوال في العديد من بلدان العالم وأرجائه في عصرنا الحاضر حيث يقرر : (على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع) (وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط) (واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة) . وينتقل ابن خلدون بعد ذلك الى الحديث عن التخصص في الصناعة والأصالة فيها نتيجة النمو الحضاري في البلدان التي اعتادت نوعاً معروفاً من الصناعات واشتهرت به ، فيؤكد على مايمكن أن يحققه ذلك التخصص من رسوخ تلك الصناعة في ذلك البلد وصعوبة انتزاعها منه على مر الأجيال طالما كانت الرعاية والممارسة تدعمها . (ان رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران والوأم ، والعوائد انما ترسخ بكثرة التكرار

وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال ، واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها) .

وكعهدنا بابن خلدون في سبق غيره ممن اهتم بالأبحـــاث الاقتصادية والاجتماعية، ونشوء الأمم وتطورها في تقرير كثير من الظواهر، وتفسير كثير من الحوادث والوقائع ، وطرح العديد من الأفكار المحدثة ، فاننا نجده ينطلق في التعبير عن أهمية الصناعة في عمران البلدان والأمصار وفي دوام قدرتها وقوتها حتى اذا أصابها الوهن والتأخر وأدركها الخراب ، كان ذلك ايذاناً بتـــدني قدرتها الصناعية وانخفاض مستوى انتاجها عما كان عليه من قبل وعن مسايرة انتاج غيرها من البلدان الاخرى التي استطاعت أن تحمي وجودها من الانحلال والزوال . (ان الأمصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع) .

ويوضح لنا بعد ذلك ابن خلدون أي نوع من الصناعات يمكن ان يشهد النمو والتطور والازدهار ، وهو بذلك يربط الصناعة بقانون العرض والطلب الذي يستحكم حتى يومنا بتصريف الانتاج العالمي الكبير ، ويفرض على الصناعات العديدة والمتنوعة في مختلف ارجاء العالم قوته وجبروته ، دون أن تنتقص من هذه القدرة شيئاً يذكر مختلف التدابير التي قد تلجأ اليها بعض البلدان أحياناً لمعاجة مشكلات الانتاج والتوزيع والاستهلاك . وعن تلك الرابطة يقول : (ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها) (واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق بها ولا يوجه قصد الى تعلمها) .

أما عن الدور الذي يمكن أن تلعبه الدولة في التقدم الصناعي لبلد من البلدان وفي دعم صناعته ونموها ، وفي توفير الامكانات اللازمة لاتساعها وازدهارها

فلم يكن ابن خلدون أقل من غيره في تقدير هذا الدور، وفي الافصاح عن حقيقة يوليها رجال الاقتصاد في عصرنا الحاضر اهمية بارزة عند وضع الخطط الانمائية وبحث مستقبل المشاريع الصناعية في بلد من البلدان . وفي هـذا المجال يقول ابن خلدون : (**ان الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة ، فهي التي تنفق سوقها، وتوجه الطلبات اليها ، وما لم تطلبه الدولة ، وانما يطلبه غيرها من أهـل المصر ، فليس على نسبتها ، لأن الدولة هي السوق الأعظم**) .

وبعد ، فان ما تعرضنا اليه من آراء وافكار نابعتنا ابن خلدون قليل من كثير ، وغيض من فيض مما تناوله بالبحث والتمحيص من الظواهر الاقتصادية ، ومع ذلك ، فان هـذا القليل يحتاج الى كثير من الشرح وكثير من التعليق والتبيان حتى تتكشف جميع جوانبه ، وتتبدى مختلف صوره وابعاده ، وهو عبء يقع على عاتق العاملين على اظهار التراث العربي والمهتمين بالدرس والبحث والتحقيق عن الحضارة العربيـة وما قدمته للانسانية من فضل وخير على مدى قرون عديدة ، وسيمتد الى اجيال قادمة لا يعلم مداها الا الله .

واذا كان ابن خلدون قد تعرض لتلك الظواهر بصفته عالم اجتماع ، فان هذا لا ينقص من قدر تلك الآراء والافكار والنظريات بشيء ، بل على العكس، فانه يعطيها اهمية خاصة ، ذلك لأن ابن خلدون قد نهج في البحث أصولاً لم يسبقه إليها احد من قبله، فجاءت تلك الآراء والأفكار والنظريات مبنية على اصول البحث العلمي من جهة ، وعلى الربط بين علمين أساسيين هما علم الاجتماع وعلم الاقتصاد من جهة اخرى، ثم أنها من جهة ثالثة جاءت في زمان بدأت فيه عوامل الانحطاط تفعل فعلها في جسم الامة العربية بينما كانت بوادر عصر جديد من التفتح والحضارة تطل بخيالاتها على اوربا .

ويحدثنا المؤرخون والباحثون ان آثار ابن خلدون وخاصة مقدمته الشهيرة كانت محل بحث واهتمام عدد كبير من العلماء والمفكرين في اوربا في عصر النهضة ، وانها أثرت من قريب او بعيد في الأفكار والنظريات التي قدمها هؤلاء فيما بعد . وهذا ما يضفي عليها طابع الجدة ويدعو الى الاهتمام بها من قبل الامة العربية التي يرتبط تاريخه بتاريخها واسمه باسمها ، ولهذا فسيبقى اسمه من الخالدين في سجل الوجود الانساني والحضاري .

التربية الاشتراكية عند ماكارنكو [1]

ترجمة

أديب يوسف شيش

طبّق ماكارنكو وسوّغ من الناحية النظرية عدداً من مبادىء طريقة التربية الشيوعية . وتتمثل هذه الطريقة بأسلوب بناء المدرسة السوفييتية مع التطورات التي ينتظر أن تطرأ عليها في فترة بناء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

إن الصفة المميزة لنظام ماكارنكو التربوي هي أنه يدعو الى عملية تربوية فعالة وموجّهة تتناول جميع مظاهر حياة الاطفال والمراهقين ونشاطهم بدل الاقتصار على العمل المدرسي .

ويؤكد ماكارنكو بحق أن التربية يجب ان تحسن استخدام الوسائل المتنوعة ذات التأثير الايجابي لكي تتمكن من أبعاد جميع المؤثرات الضارة

(١) نشر القسم الأول من هذه الدراسة في العدد ٨ (كانون الثاني ١٩٦٩) من المعرفة .

التي تعترض سبيل المربي ، مهما كانت قوية . وهذا يعني أن التربية يجب ألا تتم في حجرة الدرس فقط ، بل يجب ان تتغلغل في حياة الطالب كلها وتؤثر فيه ، في حجرة الصف وخارجها .

ان أفكار ماكارنكو ، شأن أساليبـــه العملية التربوية ، مشربة بروح انسانية اشتراكية ، وبإيمان عظيم بالانسان ، وبحب الأطفال والشبيبة ، والمبدأ الأساسي لهذه التربية العميقة في انسانيتها هو « التوقع » او التطلع : « توقع من الانسان اكثر مايمكن ، واحترمه بقدر ماتستطيع » .

وباتباع هذا المبدأ أحرز ما كارنكو نجاحاً ملموساً في عمله مع الجانحين الأحداث والأطفال المشردين والمهجورين : حتى انه كان يؤكد « انه لايوجد أطفال عسيرون » .

وقد صاغ ما كارنكو أهداف التربيـــة ووسائلها معتمداً على المذهب الماركسي اللينيني في التربية الشيوعية للجيل الجديد ، المذهب الذي يدعو إلى نمو الشخصية نمواً كاملاً . فكان يقول : « أعني بهدف التربية منهاج الشخصية الانسانية ، منهاج الطبع الانساني . ومفهوم الطبع يشمل بالنسبة لي كل مايحويه الشخصية » .
وقد شرح ما كارنكو هذه الصيغة بقوله : « نريد إعداد العامل السوفييتي المثقف . لذلك يجب ان نقدم له التعليم ، تعليم المدرسة المتوسطة ، بقدر الإمكان . ويجب ان نقدم له أهلية مهنية ، يجب ان نعلمه النظام ، يجب ان يكون ذا وعي سياسي وان يصبح عضواً مخلصاً للطبقة العاملة ، وعضواً في منظمة الشبيبة ، وشيوعياً . يجب ان تنمي فيه حس الواجب وفكرة الشرف ، وبعبارة اخرى يجب ان يكون واعياً قيمته وطبقته ، يجب ان يتعلم كيف يطيع أحد الرفاق ، وكيف يأمر أحد الرفاق . يجب ان يتعلم كيف يكون مهذباً او قاسياً ، متسامحاً او متشدداً حسب

ظروف الحياة والنضال . يجب ان يكون منظماً ونشيطاً. يجب ان يكون مثابراً ومتعاطفاً . يجب ان يكون سيد نفسه ويمارس تأثيراً في الآخرين : اذا عاقبته الجماعة يجب ان يحترم جماعته وعقابها ، يجب ان يكون مرحاً ، يقظاً ، مستقيماً ، قادراً على النضال والبناء ، قادراً على الحياة وعلى حب الحياة . يجب ان يكون سعيداً . ويجب ان يكون كل هذا لا في المستقبل، بل في كل يوم من أيامه الحاضرة .

وقد أشار ماكارنكو الى أهمية تكوين خصال الشهامة وروح الطاعة ، وحسن الانجاه ، والحس العملي والاخلاص ، وكان يؤكد بصورة خاصة الحاجة الى غرس خصلة الصبر على المشاق ، وتربية القدرة على تخطي الصعاب .

وكان يقول : « تستطيعون ان تعلموا ، ماشئتم من الأفكار الصحيحة عما يجب عمله ، لكن إذا لم تغرسوا عادة التغلب على الصعاب ، يحق لي ان أقول لكم إنكم لم تعلموا شيئاً » .

ان العمل والجماعة والشخصية هي النقاط الثلاث الأساسية في نظام ماكارنكو التربوي . كان ماكارنكو يدرك بصورة صحيحة ان التربية السوفييتية هي تربية جماعية، لذلك كان يعتقد ان هذه التربية يجب ان تتم بانشاء جماعات قوية متنفذة ، وكان يؤكد ان المدرسة إذ تمثل جمعية أخوية من المعلمين والتلاميذ على رأسها المدير ، تؤلف واحدة من هذه الجماعات الموحدة التي يتم فيها تربية الأطفال .

وكان ماكارنكو لايحبذ « التربية الفردية » التي تقتصر التربية على التأثير المباشر الذي يمارسه المعلم او تلميذه ؛ لكنه على الرغم من تشوقه الدائم الى إعداد الجماعة وتعزيزها وتنميتها ما كان ليغفل عن الطفل بوصفــه فرداً ، وكان يؤكد باستمرار أهمية العمل التربوي للفرد .

وقد وضع ماكارنكو أسلوباً تربوياً مبتكراً للعمل الفردي قائماً على فكرة

جديدة عن العلاقات بين الشخصية والجماعة . فقد حلل طريقة عمله التربوي في مركز غوركي وفي مركز جرجنسكي واهتدى الى ان الاتصال بين الجماعة برمتها والشخصية الفردية يجب ان يتحقق ، لابصورة مباشرة ، لكن بوساطة ما كان يدعوه الجماعة الأولية التي تتألف بصورة خاصة لتحقيق أغراض تربوية (الزمرة والفرقة والصف) . ان مبدأ الجماعة الأولية هـذا يعدُ خطوة كبيرة في سبيل تطوير تربية علمية ويمكن ، اذا مااستخدم بحكمه ، ان يصبح أداة تربوية فعالة في أيدي المعلمين .

فما الجماعة الأولية ؟ انها كما يعرفها ماكارنكو « جماعة يكون أعضاؤها على صلة دائمة بعضهم ببعض من العمل المشترك والصداقة والحياة والعقيدة المشتركة » .

وفي النشاط التربوي لدى ماكارنكو تقوم الجماعة الأولية، الزمرة، بدور هام جداً بوصفها أداة تأثير في الشخصية . مثال ذلك ان الهيئات القيادية في مركز غوركي ومركز جرجنسكي (الهيئة العامة ، مجلس القادة ، منظمة الشبيبة) كانت ترجع بصورة خاصة الى الجماعة الأولية . فقد كانت بوصفها كلا تُعتبر مسؤولة عن كل واحد من افرادها . وكان يُطلب منها ان تقدم الايضاحات في بعض الحالات . وكانت الجماعة الاولية بدورها تطلب بشدة ايضاحات من كل فرد من أفرادها إذا خرج على معايير السلوك . وقد كان لهـذا النفوذ الجماعي تأثير تربوي قوي . وكان مبدأ « التأثير التربوي المتوازي » هذا أساساً لعمل ماكارنكو التربوي .

وكان يعتقد بأنه يجب ألا يُسمح للجماعة الاولية ان تعيش منعزلة ضمن الاطار الضيق لمصالحها الخاصة . وهذه فكرة ذات أهمية بالغة . لأن خطر هـذه

النزعة ماثل دائماً . ذلك ان اعضاء احدى فرق الانتاج وتلاميذ أحد الصفوف ، أو اعضاء أية حلقة من الحلقات ، لهم دائماً مصالحهم النوعية التي تختلف عن مصالح الجماعات الاولية الاخرى ، لذلك يتفق في بعض الاحيان ان يقود حب هذه المصالح الى تفكك الجماعة المدرسية ، والى نسيان الهدف المشترك والحماسة المشتركة .

وهذا هو السبب الذي جعل ماكارنكو ، رغم تعليقه أهمية كبيرة على الجماعة الاولية ، يؤكد ان تربية عضو الجماعة الحقيقي لايمكن ان تتم الا في نطاق جماعة كبيرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجماعات كبيرة اخرى . ان التربية السوفيتية الحقيقية لاتتم إلا حين تعتبر جماعة كبيرة كهذه من الاطفال او الشبان انها تؤلف جزءاً من المجتمع السوفيتي .

هذا المبدأ الذي صاغه ماكارنكو هو محور نظرية التربية السوفيتية ، وكل معلم وكل مرب يستوحيه في اثناء نشاطه العملي .

وحين عالج ماكارنكو مسألة تأليف جماعة الاطفال بيّن ان احد المبادىء الأساسية للمنظمة الجيدة ، للمنظمة القادرة على الحيــــاة ، هو الحرص الدائم على « قانون حركة الجماعة » : فعلى الجماعة ان تضع دائماً نصب عينيها هدفاً لايمكن الوصول اليه الا بجهود . ان وضع مجموعة من الأهداف ومطالبة جميع التلاميذ ببلوغها بفضل الجهود الجماعية التي تبذل في هذا السبيل هو الشرط الاساسي لنمو الجماعة وتماسكها وتحولها الى عامل تربوي .

وانطلاقاً من المفهوم الماركسي للجماعة يسعى ماكارنكو لكي يعلم تلاميذه التوفيق بين مطامحهم ومصالحهم الشخصية ومطامح الجماعة الاولية ومصالحها ومصالح الجماعة الكبيرة كلها ومطامحها .

وفي رأي ما كارنكو ، في ظل ظروف المجتمع السوفييتي، يجب ألا يكون هناك تناقض بين المصالح والمطامع الشخصية ، ومصالح الجماعة الصغيرة او الكبيرة ومطامحها : يجب ان تنبثق الاهداف الشخصية من الاهداف العامة . وكان يقول : « إذا كانت المصالح الشخصية في جماعة من الاطفال غير محددة بالمصالح المشتركة للجماعة ، فان هذه الجماعة تكون سيئة التنظيم . كما ان التربية التي تعطى فيها لا يمكن اعتبارها تربية سوفييتية بصورة كلية » .

وكان ما كارنكو يعلق أهمية كبيرة على أمور من قبيل اسلوب الحياة في جماعة الاطفال .

الأسلوب والنبرة هما الشكلان الخارجيان اللذان يبدو بهما نشاط الجماعة وينعكس عليها احترام معايير الاخلاق الشيوعية من جانب أغلبية اعضائها . ان الاسلوب هو التعبير عن وعي التلميذ وعياً حقيقياً جاداً لكل مهمة يعهد بها اليه، وهو القدرة على المحافظة على ضبط النفس ، إنه القدرة على التوجه في الوسط المحيط به وعلى المحافظة على كرامته الشخصية في جميع الظروف .

كان ما كارنكو يقول : ان أسلوب الحياة لجماعة الاطفال السوفييتية يجب أن يتصف بالحيوية الدائمة ، بالاستعداد في كل لحظة للبدء بالعمل . ان مجموع هذه الصفات هو الذي أطلق عليه ما كارنكو « النبرة العالية » مجازاً ، رمزاً لمستقبل الجماعة المضمون .

وحين دعا ما كارنكو الى الحفاظ على هذه الدرجة العالية من الحيوية ضمن جماعة الاطفال كان يرى من الضروري ايضاً تعويد الاطفال على ضبط النفس وعلى جعلهم قادرين على كبح جماح عواطفهم وعلى تجنب الخروج على معايير سلوك الرجل المهذب وقواعد النظام القائم . وهو لم يكن يريد لهم تصرفات خالية من التوازن

وكان يرى من الضروري تعليمهم التحكم بحركاتهم وحيويتهم .

أما في حقل الوسائل التعليمية التي تساعد في اعداد جماعة الاطفال فكان ماكارنكو يعلق أهمية كبيرة على العامل الانفعالي في حياة الاطفال ونشاطهم ولاسيما اللعب .

يقول : « لابد من وجود اللعب في جماعة الاطفال . وجماعة الاطفال التي لايلعب فيها الاطفال ليست جماعة اطفال حقيقية » .

ان اللعب يساعد على خلق نبرة عاليه Tonalité majeur واعية ومرحة وحالة ذهنية مستعدة دائماً للنشاط المفيد ، للعمل باهتمام ووعي .

وكانت التقاليد - في نظر ماكارنكو - وسيلة أساسية لتعزيز الجماعة . يستحيل الحصول على تربية سوفييتية جيدة من دون وجود جماعة متضامنة تنزع نحو الهدف ذاته خلال فترة من الزمن كافية لكي تجمع لديها عدد من التقاليد الايجابية . وكان يعتبر خلق التقاليد الجدة والمحافظة عليها في المدرسة مهمة تربوية على جانب كبير من الاهمية .

وكان يرى أيضا ان على الرجل المهذب في الجماعة ان يعرف كيف يخضع لأحد الرفاق وكيف يدير رفاقه . وفي هذا الحقل اثناتظهر القيمة العظيمة لتجربة هذا المربي المجدد الذي استطاع أن يبتكر في مركز غوركي ومركز جرجنسكي نظاماً معقداً من علاقات القيادة والطاعة المتبادلة التي اسهمت في أعداد رجال يتحلون بالارادة وحب النظام ويعرفون كيف يصدرون الأوامر وكيف يطيعونها .

وفي مجال الحديث عن الطريقة الرامية الى خلق علاقات متبادلة من الطاعة المتبادلة في الجماعة لابد من الاشارة الى ان ماكارنكو أدخل اشياء

كثيرة جديدة الى نظرية وطريقة الحكم الذاتي لدى الاطفال. ففي خلال السنوات الاولى للحكم السوفييتي التي اعيد خلالها النظر في المدرسة القديمة وتم انشاء مدرسة جديده ، جرى حل هذه المسألة في أغلب الاحيان بطريقة مغلوطة . وكان يقف في وجه المنظمات الطلابية جماعة المربية .

لكن تجربة ماكارنكو جعلت من الممكن الاهتداء الى حل صحيح لهذه المسألة ، فقد بيّن في مؤلفاته وفي تطبيقاته ان من اهم الوظائف الاساسية لجماعة المربين ، وعلى رأسها مدير المدرسة ، تنظيم مجتمع الاطفال ومساعدته على الادارة الذاتية ، لأن هذه الادارة الذاتية هي احدى الوسائل لاعداد اعضاء للمجتمع نشيطين وواعين. وهي تتيح للمربين تكوين عادات التنظيم وتربية الارادة والوعي الجماعي والنظام الجماعي لذلك يجب ان تكون الادارة الذاتية للطلاب مستقلة موجهة . ويجب ان تلقى الدعم من جماعة المربين ومنظمات الشبيبة والشيوعية والطلائع .

وكان ماكارنكو يعلق أهمية عظيمة ، لحسن تنظيم العمل التربوي ، على تكوين فريق متضامن من المعلمين. فقد أشار مراراً الى أن نجاح العمل التربوي في جماعة من الأطفال وخاصة العمل الفردي مع الاطفال ، لايمكن ان يتم إلا اذا تجنب المعلمون العمل بصورة منعزلة وعملوا متضامنين يجمعهم رأي واحد وعقيدة واحدة وتبادلوا فيما بينهم العون .

ان الصفة المميزة الثانية لنظام ماكارنكو التربوي — اذا اعتبرنا العمل في الجماعة صفته المميزة الأولى — هي التعليم بالعمل ؛ فهو يقول : لايمكن، إلا بالعمل المشترك المفيد اجتماعياً والمنتج ، إعداد مواطنين سوفياتيين حقيقيين . ان الجهد الشاق المشترك والعمل في أحضان الجماعة ، والعون والاعتماد المتبادلان باستمرار في

أثناء العمل ، تستطيع وحدها خلق علاقات عادلة متبادلة وتوقظ الحب بين اعضاء الأسرة الواحدة والصداقة إزاء كل من يسهم في العمل . والنفور والاشمئزاز ممن يؤثر الكسل ويتهرب من العمل . فبفضل العمل الشاق يتلقى الانسان الإعداد الضروري للفعاليات الانتاجية ، ويتكون لديه موقف سليم من الآخرين . وفي العمل يكتسب الثقة بقواه الخاصة ، ويشعر بالرضا ويحس بالسعادة الشخصية .

ان العمل بسبب قيمته الاجتماعية العظيمة يلعب دوراً عظيماً في الحياة الفرديه للطفل لأنه المظهر الأساسي الذي تبدو به شخصيته .

والعمل ، مادام وسيلة لتنمية إنسان المجتمع الشيوعي تنمية منسجمة ، يجب أن يكون مبدعاً ومنتجاً ، ويجب أن يتم في مشروعات تملك تجهيزات ذات مستوى فني « راق » ، ومرتبطاً مع التعليم المدرسي . وهذا ماقاله لينين : « ... لايمكن أن نتمثل في أذهاننا المجتمع المثالي في المستقبل من دون أن يكون التعليم فيه مرتبطاً بالعمل المنتج الذي يقوم به جيل الصغار : ان التعليم والتربية لايستطيعان ، من دون العمل المنتج ، بلوغ المستوى الذي يتطلبه تطور التقنية وحالة المعارف العامة » .

ان العمل في ظروف الانتاج الحديث الممكنن بدرجة عالية كان في رأي ماكارنكو وسيلة هامة للتربية ومحوراً ، في الوقت ذاته ، ينتظم حوله جميع حياة أطفاله . كانت الأشياء منظمة في مركز جرجنسكي تنظيماً يجعل الطلاب يرغبون باستمرار في أن يكون عملهم جزءاً من العمل المشترك الذي يقوم به السوفيتيون ويشعرون بأنهم يسهمون في تعزيز الثورة الاقتصادية لوطنهم وفي بناء القواعد المادية والتقنية للاشتراكية .

ولدى تحليل تجربة التعليم بالعمل التي جرت في مركز غوركي ومركز

جرجنسكي أكد ماكارنكو أن العمل ، بوصفه وسيلة للتعليم يجب ان يؤخذ دائماً في ضوء نظام الوسائل التربوية الأخرى ، لأن « العمل إذا لم يكن مصحوباً بالتربية السياسية والاجتماعية فلن تكون له أية قيمة تربوية ولن يكون سوى عملية حيادية » .

وكان ماكارنكو يعتبر « التطلعات » أحد المبادىء الأساسية في التربية السوفييتية . وانطلاقاً من هذه الفترة كان هو ، في حقل التربية ، أول من صاغ وطبق بمهارة عظيمة وجدوى كبيرة في ميدان التعليم نظام « التطلعات » ، الذي عبّر عن فكرته الأساسية بالشكل التالي :

« الانسان لا يستطيع الحياة في هذا الكون اذا لم يتطلع إلى شيء جذاب . ان الحافز الحقيقي للحياة الانسانية هو فرح الغد ... وتربية الانسان تعني خلق تطلعات لديه ينتظم حولها فرح الغد » .

إن تنظيم هذا الفرح ، في التطبيق التربوي ، يعتبر أحد الاهداف الأساسية للعمل . فيجب أن تقترح في جماعة الأطفال أهداف متجددة على الدوام لا يمكن بلوغها إلا بجهود تكون في الوقت ذاته ينبوعاً للفرح .

ويبلغ تطبيق مبدأ « التطلعات » ذروته إذا بُعثت مطامح جماعيـــة لا فردية فقط . فيجب على الأطفال ، على حد قول ماكارنكو ، أن يستهويهم الى أبعد حدٍّ تقدمُ وطن السوفييت وإنجازاته ونجاحاته . وهذا يساعد الأطفال على اعتبار حياتهم مرتبطة بحياة المجتمع برمته ، وتصبح التطلعات الجماعية تطلعاً شخصياً لكل تلميذ .

ولدى تنظيم نشاط الجماعة وتربية الشخصية كان ماكارنكو يعلق أهمية كبيرة على المهات والواجبات التي يكلّف الافراد بالقيام بها . فكان يعتبرها

تمريناً وفرعاً من النشاط ينمي مختلف مواهب الفرد في أحضان الجماعة. فيجب أن تكون هذه الواجبات متناسبة مع قدرات الفرد ويجب أن تتم تحت الاشراف الدقيق للجماعة المطبوع بطابع الثقة بالفرد.

وكان ماكارنكو، بصورة عامة، يرى أن تربية الفرد جزء لايتجزأ من تربية الجماعة، وقد أكد في أكثر من مناسبة انه في سبيل الازدهار التام لجميع مواهب الفرد في الجماعة لابد أن يعامل بمنتهى اللباقة والعناية. وكان يقول: «ان المهمة الوحيدة للتنظيم الجديد بعصرنا وبثورتنا لايمكن أن تكون سوى ايجاد طريقة تكون واحدة ووحيدة وتتيح لكل شخصية أن تنمي مواهبها الخاصة. وتحافظ على فرديتها».

ان كل طفل عالم معقد من الأهواء. ورسالة المعلم السامية هي مساعدة الطفل على فهم هذا الكون، ومعرفة كيفية توجيه نموه، وإغنائه بالمثل العليا.

إن تجربة ماكارنكو التربوية تعد مثالاً عظيماً لطريقة تربية الشخصية وتدريب الذهن وتكوين الصفات الأخلاقية السامية لدى الأطفال والمراهقين، فمن حوالي ثلاثة آلاف من الأطفال المهجورين والجانحين انشأ رجالاً جدداً، بكل مافي العبارة من دلالة، مواطنين سوفياتيين شرفاء، مخلصين للوطن، رجالاً أمناء لواجبهم الاشتراكي، أقوياء الارادة يتحلون بروح المبادرة، يحبون النظام ويعشقون العمل.

وقد أدخل ماكارنكو الى مجموعة المسائل التربوية المدرسية الكبرى عدداً من المسائل الأخرى كالانضباط والنظام والمكافآت والعقوبات. وكان يدرس هذه المسائل في صور صلتها الوثيقة بنظام التربية العام.

ويجب قبل كل شيء أن نشير الى ان ماكارنكو يعالج بطريقة جديدة موقف المعلم السوفيتي من الانضباط . فخلاف التربية البرجوازية التي كانت تعتبر الضبط وسيلة لتعليم الخضوع والطـاعة كان ماكارنكو يعتبره نتيجة للتربية .

كان يقول : « إن الضبط نتيجة لمجموع العمل التربوي كله بما في ذلك عملية التعليم ، وعملية التربية السياسية وعمليـة تنظيم الأخلاق ، وعملية الصدامات والخلافات وحل الخلافات في احضان الجماعة ، وفي عملية الصداقة والثقة وكل عملية التربية ، دون إغفال عمليات أخرى كالثقافة الرياضية والتربية البدنية . الخ » .

كان ماكارنكو يدرك الضبط السوفيتي على أنه ضبط للجهد المظفر ، للنضال والحركة إلى أمام ، ضبط الطموح الى هدف والنضال في سبيل شيء من الأشياء .

يقول : « ان ضبطنا هو اتحاد الوعي التام والفهم الواضح الكامل ، من جانب الجميع ، بطريقة العمل التي تظهر بشكل خارجي واضح وقابل للفهم الكامل ، ولا يحتمل مناقشة ولا اختلافات في وجهات النظر ولا معارضة ولا ترثرة » .

وحين أكد ماكارنكو أن الضبط نتيجة لتنظيم جيد لجميع حياة الجماعة ونشاطها ، بيّن في الوقت ذاته ، ان من الواجب شرح قواعد السلوك ومعايير الأخلاق السوفيتية للأطفال بشكل مقنع ثم مطالبتهم بتنفيذها .

وكان يعتبر فن تقديم الفروض أو الواجبات للطلاب مظهراً أساسياً

لقدرة المعلم التربوية . فعلى المعلم حين يطلب هذه الفروض أن يجمع بين العدالة والقسوة بلا مساومة . لهذا كان يؤكد القيمة التربوية الكبيرة للكلام العملي الحازم من جانب المعلم الذي يجب أن يعرف التعبير عما يريد بطريقة تجعل التلاميذ يشعرون بحزمه وثقافة وشخصيته .

وتحتل المكافآت التشجيعية والعقوبات مكانــــة بين مختلف الأساليب والوسائل التي استعملها ماكارنكو في تطبيقاته التربوية . وكان يشير الى أن نجاحها تربوياً لا يتم إلا إذا جرت بروح من الثقة بالفرد . ويجب أن تكون المكافآت والعقوبات نادرة بقدر الامكان وأن تستعمل بحكمة وفي كل حالة خاصة يجب أن تكون طبيعتها واضحة في عيون الجماعة كلها بجموعها وبأفرادها .

وقد أكد ماكارنكو مراراً أن الروتين شيء لا يجوز قبوله في العمل التربوي . وكان يقول ان التربية هي أكثر العلوم حظاً من الجدلية وأكثرها حظاً من الحركة وأكثرها تعقيداً وتنوعاً . والذي يمكن ان يكون حسناً في بعض الظروف وبعض المناسبات يمكن أن يغدو سيئاً في ظروف ومناسبات أخرى . وفي العمل التربوي لا يمكن ، في رأيه ، أن تكون أية وسيلة حسنة أو سيئة اذا أخذت بصورة مستقلة عن الوسائل الاخرى وعن مجموع النظام ، عن مجموع التأثيرات التربوية المعقد .

ان عمل المعلم المربي معقد كقطعة من النسيج ، يكون فيه المعلم لا إزاء اطفال فقط بل إزاء افراد مختلفين ، لكل منهم ميوله الخاصة ومستوى نموه الخاص ومقدرات وطباع خاصة . لذلك كان كل درس وكل لقاء بين المربي والتلاميذ وكل مقابلة له مع احد التلاميذ على حدة بمثابة دراسة صغيرة في العمل

الفني الضخم الذي يقوم به المربي . فيجب عليه في كل هذه المواقف ان يكون على علم بهدف المقابلة وظروفها ودرجة نمو جماعة الاطفال .

وقد قدم ماكارنكو عدداً من الأفكار القيمة حول فن معلم المدرسة فبين ان اتقان فن التعليم ليس صفة موروثة بل يأتي مع الاعداد التربوي والخبرة والجهد اليومي الذي يقوم به المعلم لتكوين نفسه والتقدم في اتقان مهنته . وكان ماكارنكو يرى ان حسن الاتجاه وضبط النفس والثقة بالنفس لدى المربي ، وقدرته على ممارسة التأثير المجدي في جماعة الأطفال جماعة وافراداً ، كان يرى ان هذه صفات لاغنى عنها لامتلاك ناحية التربية والتعليم . وكان لاينفك يوصي معلمي المستقبل منذ دخولهم الى معاهد المعلمين بأن يعتنوا بصوتهم - الأداة الرئيسية للعمل التربوي - وبعض الأساليب التربوية ، (فن المحاكاة ، والحركات ، وكيفية الوقوف أمام الصف ، والحديث مع التلاميذ في مختلف المواقف) .

وكان في أحاديثه مع المعلمين ومحاضراته يتكلم بحرارة وبلباقة عظيمة عن عمل المعلم ومهمته المعقدة والشاقة لكن السمحة الكريمة في سبيل اعداد الأجيال الجديدة للحياة . وكان يتحدث اليهم ويقف بينهم بكل بساطة من دون تكلف أو ادعاء أو تعال . بل كان دائماً يؤكد انه كان يسعده ان يتعلم من زملائه لاقتناعه بأن هناك أشياء كثيرة في عملهم جديرة بأن يتعلمها .

* * *

عند التأمل في تراث ماكارنكو التربوي من حيث الرسالة الملقاة على عاتق المدرسة في أيامنا يظهر لنا كم كان مصيباً حين قال : « ان استنتاجاته العملية يمكن أن تطبق لا على الأطفال المهجورين فقط ، بل على أية جماعة من الأطفال أيضاً وعلى كل من يعمل في حقل التربية » . وان أفضل الأدلة على حيوية أفكاره

التربوية وجدتها تأتي من العديد من مدارس التعليم العام السوفييتية التي يطبق فيها المربون عن وعي وبروح خلاقة أفكار ماكارنكو ويسيرون بنجاح على طريقته في التربية والتعليم .

وقد لخص ماكارنكو أفكاره المبنية على خبرته الطويلة وعلى جهوده في بناء المدرسة السوفيتية بالمبادىء العامة التالية .

أولاً – الى جانب اتقان طريقة التعليم لابد من اتقان طريقة التربية بقدر الامكان . فكل منها يجب ان يكون كالغصن المستقل في شجرة التربية والتعليم ، لكن يجب أن يكون بينها اتحاد وثيق وصميمي .

ثانياً – ان طرائق التربية وأساليب التعليم يجب أن تستوحى من الخبرة وتخضع لأهداف اجتماعية وسياسية راقية . فلا يجوز لأي أسلوب تربوي أن يؤخذ بمعزل عن مجموع النظام التربوي . وليس هناك نظام تربوي غير قابل للتعديل والتبديل .

ثالثاً : ان التربية السوفييتية تربية جماعية ، لذلك كان الواجب الأول والواجب الاساسي للمربين ، في المدرسة السوفييتية ، جمع التلاميذ في جماعة موَحّدة . والجماعة المدرسية الكبيرة الموحدة المؤلفة من عدد من الجماعات الأولية ، لايمكن خلقها إلا بمجهود مشتركة من جانب جميع التلاميذ والمدرسين .

رابعاً : ان اقوى تأثير تربوي في الفرد هو تأثير جماعة الأطفال حين تعمل بصورة منسجمة مع تأثير المربين وفق المبدأ المسمى « التأثير المتوازي » .

خامساً : ان دمج العمل المنتج والتعليم والتربية السياسية هو أساس كل حياة الجماعة . ان العمل المشترك والمساهمة في تنظيم النشاط العملي ، وكل حياة الجماعة ، تساعد في تكوين روابط معقدة من الخضوع والسيطرة المتبادلة بين

التلاميذ . ان قدرة التلاميذ على اصدار الأوامر وعلى الامتثال لهـا عن وعي باستمرار ، والتنظيم الجيد لحكومة الطلاب الذاتية يسمحان بحل بعض المسائل التربوية كالنظام والعقوبات والمكافئات والواجبات من زاوية جديدة .

سادساً : من المستحسن ان نربط قيمة للآراء التي قدمها ماكارنكو عن أساليب التربية التي لابد منها لكي يصبح المعلم سيد مهنته .

وفي عام ١٩٥٨ صدر قانون حول « توثيق الصلات بين المدرسة والحياة وتطوير نظام التعليم العام في الاتحاد السوفييتي » فخلق ظروفاً ملائمة جداً لاستخدام تجربة ماكارنكو التربوية الثمينة استخداماً مثمراً فصارت تطبق في افضل المدارس لاعداد الجماعات المدرسية وتعليمها ، ولتنظيم العمل المدرسي والتربوي لطلبة القسم الداخلي وتنظيم فرق الانتاج التي يؤلفها التلاميذ .. الخ .

وفي ١٣ آذار ١٩٦٣ احتفل المعلمون في الاتحاد السوفييتي بذكرى ميلاد ماكارنكو الخامسة والسبعين وكان قد مضى ربع قرن على وفاة هذا الصديق العظيم للمعلمين السوفييت ، هذا الناصح الصادق للادباء والمرشد البارع للشبيبة . وخلال هذه الفترة سارت بلاد السوفييت شوطاً طويلاً في طريق نموها . وحقق الشعب السوفييتي نجاحات عملاقة في ميادين البناء الاقتصادي والثقافي . وقد طرأت تبدلات عظيمة على المدرسة السوفيتية المكلفة بتثقيف جيلنا الجديد واعداده للحياة .

وفي أيامنا التي دخل فيها الاتحاد السوفييتي مرحلة بناء الشيوعية تقع على مدرسة التعليم العام السوفييتية مسؤوليات على جانب عظيم من الأهمية .

« ان الانتقال الى الشيوعية يتطلب منا أن نعد ونعلم رجالاً يملكون وعياً شيوعياً ، وثقافة عمالية ، ويحسنون العمل اليدوي كما يبرعون في العمـــل

الذهني ، وينشطون في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية وفي ميدان العلم والثقافة ، . (*)

هذه المهمة تتطلب تثقيف انسان جديد يجمع بصورة منسجمة الكنوز الروحية ، والصفاء الاخـــلاقي والكمال الجسماني . وتتحمل المدرسة السوفييتية عب أساسياً في انجاز هذه المهمة المعقدة . فقد عهد اليها رسالة عظيمة ، رسالة انشاء الجيل الصاعد - بناة الشيوعية القادر لا على الاحتفاظ بالكنوز الروحية المادية الموروثة عن الاجيال السابقة فحسب، بل على اغنائها ومضاعفتها ايضاً.

ان المعلم السوفييتي يملك المعارف العلمية الضرورية لكي ينجز بنجاح هذه المهمة الشريفة الملأى بالمسؤولية ، انه يملك المذهب الماركسي اللينيني ، وثقافة تربوية عالية . وهو يستغل جميع العناصر الثمينة في علم التربية العالمي الى جانب ما لدى المدرسة السوفيتية من خبرة متراكمة ، علم التربية الروسية والسوفيتية .

إن المعلمين السوفييت يعلقون اهمية خاصة على دراسة التراث المرموق الذي خلفه ماكارنكو . فأفكار هذا المربي الانساني العظيم ونصائحه التي نجحت في اختبار الزمن ، وفي تطبيقات المدرسة السوفييتية، وفي تجربة الحياة السوفيتية كلها ، تتيح لهم حل المشكلات المعقدة التي تواجههم لدى بناء المدرسة الجديدة وتربية الانسان الجديد .

(*) برنامج الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي .

الشاعر والأصوات

سليمان العيسى

« الشاعر والأصوات » ملحمة صغيرة مؤلفة من اثني عشر نشيداً . كتبت بعد النكبة .. والشاعر رمز لأمته الباقية على الرغم من جميع الكوارث .. والأصوات رمز لجميع قوى القهر والعدوان والظلام .. »

الأصوات

« كأنها تنهمر على الشاعر من أعماق
ضباب كثيف .. »

أنتَ يا من غسلتَ قلبكَ بالضوء ،
ونقّيتَ بالعبير بيانَكْ
أنتَ يا من تشعرُ في كل نبضٍ
من قبورٍ سود الرميم لسانَكْ

أنتَ .. يامن تقولُ في سيرةِ
الأبطال شعراً تصبُّ فيه كيانَكْ
تستعيرُ النجومَ ، تلهبُ ظهرَ الموتِ ،
ترمي على الدجى أرجوانَكْ

أنتَ يا شاعرَ العناقيد .. يجري
دمها المرُّ صالباً إيمانَكْ
أحرِق الكوةَ الأخيرةَ ، ماتَ الضوءُ ،
كفّنْ بذكره أحزانَكْ
أحرِق الكوةَ الأخيرةَ ، لا تكتبْ ،
ذبحنا على الضحى عنفوانَكْ

رملةٌ أنتَ .. في صحارى .. رماها
تحت اقدامنا الدليلُ وخانَكْ
رملةٌ انتَ لا تقاومُ .. زرعنا
بتوابيت ليلنا أجفانَكْ

جئتَ في الطريق .. كلُّ رؤاكَ البيض ..
فاشحذْ على الهواء سنانَكْ
وتحدث عن الفداء ، وهزَّ القبرَ ،
واعصرْ في لفظةٍ شريانَكْ

جئتُ في الطريق .. قطّر لها الأوتار ،
واسكبْ في نعشها الحائكْ

جئتُ .. حينا خطوتَ .. زرعنا
بتوابيت أمة أجفانكْ

لا تقاوم ..
لا ترتجلْ موفاً في الوهم ..
لا يعرفُ السنا شطآنكْ ..

• • •

الشاعر:

أحبُ الغيوم
جبالاً تعومْ
تحدّقُ ، تنشبُ في الشرر
تعرّي الشجرْ
وتقرضُ بالنار خيطَ السّحَرْ

• • •

احبُ الغيومْ
تموتُ النجومْ
وراءَ مقابرها الكالحة
وراءَ زوابعها النابحه

وتسحقُ صوتي ، فما من أثَرْ
وتسخرُ من كل برقٍ عَبرْ

وتقتلُ حلمَ الربيعْ
ويمتدُ ليلُ الصقيعْ

وأرنو لها أنا صوتَ البشرْ
وأحيا بيأسي ، بوعد المَطَرْ

* * *

نداءٌ غريبٌ .. أحبُ الغيومْ
أهيبُها حزناً للنجومْ

ويمضي ندائي اليتيمُ البريءْ
شعاعاً يُضيءْ ..
بمنقاره قطرةٌ من دَمٍ
وبيتان من بَلسَمٍ
ويمحقُ حبي اليتيمُ البريءْ
جبالَ الغيوم التي لا تـضيءْ
وأبقى هنا .. أنا صوتُ البشرْ
أعيش بيأسي ، بوعد المَطَرْ

* * *

أحب الغيومَ .. وأرثي لها
فقد كرهتْ أرضَنا ظلَّها
أدينُ بصمتيَ ضوضاءَها
بيأسي أمزّقُ أحشاءَها
وددتُ لو انّ عيني الطليقه
لأمحو في مقلتيها الحقيقه
لأنسجَ مصرعَها قافيه
بسكّينه يقتل الطاغيه

ولن تستريحَ جبالُ الغمامْ
ولن يلدَ الظلمُ الا الظلامْ

وجثتُنا ليست المَعبَرا
أتعذرُني قدَما قيصرا ؟

وليستْ بزرعةٍ
للسلامْ !!..

* * *

عودة امرئ القيس

محمد عمران

مدلجٌ في انطفاء القبائل ، مزملٌ بجراحي
تحت سقف العيون العتيقه
في كهوف الرماد
بين جدرانها الرقيقه
مدلج ، غضبتي سراجي ،
عصاي الريحُ ،
واللعنةُ المضيئة زادي
أعتلي هجعة القبائل ،
أرمي ،
في صناديق موتها ميلادي

وعيون القبائل مفروشة بالنباح
تجرح الطارق الغريب :

« ايها الموقظ الدروب
لا تخبىء . لا تضننا
نحن عند كندة القتيلة غبنا
نحن نمنا ، ومتنا
لا تخبىء . لا تضننا
أيها الطارق الغريب »

أصيح بالقبائل :

« مغتصب والخيل فوق وجهي
تحفر تاريخاً لها جديدا
مغلقة لا تعرف الحدودا»

أصيح بالقبائل :

« كندة مسبية
تحت حذاء الليل »

أصيح بالقبائل : استفيقي!
أمنحها طريقي
(حجر على ضلوعه وكنده)
أمشي بها في يقظة الشروق
مفتحاً أعين كل ورده

بنشوة الرحيقِ

أصيحُ ،
صار ندائي
عشباً ، وصار ترابا
عاشقاً ، صار درباً وبابا
مشرعاً في جدار العيون العتيقه
والجدار يودع أحجاره ، ويموتُ
لشبر البيوتُ
عاريات على الشموس الدفيقه
صارت اليد في جناحي
ريشةً ، أو جناحا
صرت ضوءاً مباحا
ونهاراً مسافراً في الرياحِ

• • •

أولد كل يومْ
من جسد الزرقة ، من غمامةٍ تحومْ
أولد من غزالهْ
من نجمة حبلى ، ومن رياحِ
ترقص في غلالة
من ورق الصباحِ
أولدُ ... ،

كل يومْ
ينبت في جناحي
ريشٌ ، وتنمو وردة الجراح
أولدُ ،
والغيومْ
وسادتي ، والمطر العظيمْ
والأرض جنية عذراء تغتسلُ
ترخي على كتفيها شعرها ، لغني
مشط لها ، ورداءٌ أخضرُ ؛ لغني
كحلٌ لأجفانها ، حليٌّ ، وخلخالُ ...
أصوغها ، ثم أطويها على شفتي
فترقص القبلُ
ويدفق آلالُ
أولد ، أو أموت ؛ كل يومْ
تأكلني الصحارى
تلفظني ... ،

أصلي :
« يا سماءُ أضيئي خطاي التي أطفأتها الدموعُ » ،
أعيدي لوجهي
ثوبه الأسمر الذي سلخته الرياحْ
أشعلي كوكب الجراحْ

واحرقي جبهتي ، وانثريني
جمرة ، أو دخانا
في عيون الصحارى
يا سماءُ انشريني
غيمةً ، أو غبارا
في عيون الحزانى
واسكبيني
مطراً أحمراً على شفتيها
أو أعيدي الدجى إليها
وبه كفنيني ...

أموتُ ... ، كل يوم
تسقط من جناحي
قادمة ؛ من غصن الرياح
تفاحة تحترف الضلاله
وتنحني السلاله
والأرض ، تحضن ردفها ، وتنفلتُ
أصير وحدي ، جناحاً عارياً ، لغة
حمقاء ، سيفاً بلا غمد
أموتُ ، ألتفتُ
الليل يخلع ثوبه ، يكفنني ...

انتظار شجرة

محمد عفيفي مطر

— القاهرة —

أراها .. على كل مفترق خلعت ثوبها ،
وقفت تحت نافورة الليل والشمس
واغتسلت في مياه الفصول

أراها تكابد — في غبطة الاخضرار —
تفتّحها تحت نار التفرع أو عريَها في ارتحال الغبار
وترحل في هالة الشمس طول النهار
فتطلق من جوفها رغوة الضحكات العميقة
طيوراً تهاجر في سلّم اللون ، تعطي المسافة
تجسّدها المستدير
وتمنح خط الفراغ انحناءً ، وتحضن في ظلها كائنات الهجير

فتمزج تحت الرياح ـ السقيفة
مياه التخلّق والرمل والكلمات ـ الرموز ..

* * *

هنا .. الصمتُ في رحم الكلمات
تمدّد في النطفة الأبدية
تخلّق وجهاً وحنجرةً ذهبية
ومد يديه الى الزمن المتسكع في الطرق الجانبية .
هنا الصمت يأكل من غر الأحرف اللؤلؤيّة
ويهرب عبر التخوم القديمة
ويغسل بالريح والنار أرض الوليمة
ويبني مملكة الأبجدية
ويرفع طمي الشعائر سنبلة في الحصاد الخبيء .

* * *

اذا زحف الليل .. أقفلتُ باب الحواس
لأمضغ ما قد مضغتُ طوال النهار
من الضحكات المريرة والاكتئاب الفرح
وأطلقتُ في وطن الليل مهرَ النعاس
ليصعد بي سلّمَ الرمز ،
أو يتقدم في الغابة المعتمة
فيمنحني لغة الشهوات القديمة
ويمنحني دهشة الأعين المفعمة

بشمس البداية والقمر الانثوي العظيم ..

* * *

أراها تسطر تاريخها الحيّ في كتب الطحلب الزغبي افتتاحاً

وفي كتب العشب نسغَ اخضرار

وفي كتب الورق المتجدد يغلي التداخلُ والاختمار

وفي الزهر تستقطرُ الشمسَ ،

تعجن في رئتيها لقاحَ العناصرِ ،

تملأ سلتها بالثمار

وتقفز عبر تواريخها الشجرية

موتاً طلوعْ

خريفاً ربيعْ

تسطر في الثلج والنار آيتها العبقرية

وتمرع في عربات التوالد ،

تصعد منحدرات الفصول

لتصبح أولَ ما أطلعته الخلائطُ ،

آخرَ ما أطلعته العناصرُ في أرضنا الدموية ..

* * *

تغرغر في دمعة الحبِّ ،

تغسل إيقاعها في دم القلبِ ،

ترقص عبر المنافي البعيدة

ويخنقها معجم الرعب ،

تولد في معجم تتشأكله النار ،

تفتح أبوابها في الرياح الجديدة

وتأخذ من كرمة الفرح الداخلي العظيم

حلاوتها ،

والمرارة من عندليب البكاء الكظيم

وتغضب منابنا ،

وتغفو بأقمار أحلامنا ،

وتهز مراقدنا المعتمة

لتصبح أول ما حملته الرياح ،

وآخر ما قاله البرق والرعد في شفة الشعر ـ الآلهة ..

المحاكمة

محمد أحمد العزب
– القاهرة

الزّمان :
اللاّزمانْ
والمكان :
اللاّمكانْ
وعلى صدر قُضاتي يستريح التّوأمان :
« شارةُ العدل » « ورأسُ الأفعوان »
وبأقصى الساحة الكبرى شهودُ الذاكره –
يحفظون النّصّ في غرفة شُرْطيّ جبان
ودفاعي . .
قبل أن يبدأ ينسلُ ارْتعاباً . .
وأُدان !!

* * *

ها أنا وغَدٌ مُدانْ
ها أنا في الجُبِّ مقطوع اللسان
شاعر مات .. وفي عينيه جُوعٌ للحنان
ويصيحون :
« أبو الطيِّب قادم »
فأصلّي تحت رجليه .. وأستجدي الأمان
وأبو الطيِّب يُصغي . ويقول :
اسألوه : أين كانْ ؟
أين من خارطة الأحياء والأشياء كان ؟

— : سيدي ..
كنتُ أغنّي في رواني المُنتَصَفْ
ليس للخيل .. ولا الليل
عفواً ..
للذي الانسانُ يُدْعَى كان شعري دَيْدَبانْ
حارساً مسراه .. مشدوداً وراءه ..
ثائراً من أجله كي لا يُهان
ولأني هكذا كنتُ أغنّي ..
ها أنا اليوم مُدان !!

* * *

ويصيحون :
« المعرّي »

« شاعر السقط »

« رهين المحبسين » .

فأصلّي تحت رجليه .. وأستجدي الأمان

والعلائي برفق هامس النبر يقول :

يارفاقي ..

لاتقولوا للذي جاء إلينا : أين كانْ ؟

أين من خارطة الأحياء والأشياء كانْ ؟

كان في الدنيا .. وفي قلب الزمانْ ..

عنصراً يقتاتُ منه عنصرانْ

ويقولون مدان .

خفّفوا الوطءَ ..

فما للحرف والشاعر في المأساة ـ ياقوم ـ يدانْ !!

. . .

ويصيحون :

« النواسيُّ المعربدْ » .

فأغنّي .. وأغرّدْ ..

لاله الخمر .. والشّعر .. وأستجدي الأمانْ

والنواسيُّ يقول :

ماجرى للشّعر في هذا الزمان ؟

لم يعدْ للخمر في الشّعر مكان

دائماً يقطر حزناً عبثياً .. وملالا !!

دائماً يعلّك أصفاداً ثقالا !!
أين فيه الناهدان الناهضانْ ؟
والفتى الأمْردُ .. والخود العوانْ ؟
أين فيه العودُ .. والسُّمّارُ .. والغيد الحسان ؟
أين ياشاعر هذا الملكوتْ ؟
لِمَ صوتُ الخمر في الشّعر تناهى في الخُفُوت ؟

— : سيـدي ..
عفوك .. إني مُتّهمْ ..
باغتيال الخمر .. والمُرْد .. وسُمّار البيوتْ
وبشجب القات .. والأفيون .. والليل .. وأوراد القنوتْ
وبتقطيع خيوط العنكبوت
وأنا .. أُشنَقُ في كل اتّهام .. وأموتْ
غير أني لا أموتْ !!
لا أموتْ !!
لا أموت !!

* * *

الزمان :
هذا الزمانْ
والمكان :
هذا المكانْ
وأنا القاضي الذي استدعى شهوداً من ورق

ليدين المتنبيّ .. والمعرّي .. والنّواسيّ الجبان ..
وشُهُودَ الذاكره ..
وعَصَا الشُّرْطيّ ..
والقاضي ..
وهيئاتِ الدفاعْ .
تمّتِ الآنَ الادانهْ
فلْيقف كلُّ الحضور ..
ولْيقُل كلٌّ .. لكلّ :
« الوداع »
هي ذي الرّيحُ تُغنّي في تلافيف الشّراع !!!

حوار آخر الليل

فوزي كريم

– بغداد

زائرتي في الليل
هل سمعتِ هذا الخبر الجميل
والوعد، من صومعة مات بها من قبل
ألفُ جيلْ
: جاء نبي الحب في خطوته بشاره
وفي يديه قسمُ الفلاح . ان أرضه حجاره
وان بيت العرسِ ، لايدخله قتيلْ .

– سمعتُ أن النجمْ
أقربُ للدخيلْ
من شرف العباره
وان دربَ الموتِ في دموعِ من رأيتهم طويل

زائرتي في الليل هل رأيت
من يحمل القنديل
لليلةِ العرسِ ، ويخفي خلفه الاشاره .

– رأيتهم من قبل في العيون
تحملهم أشرعة خضراء
تبيتُ في ذاكرة الصغار كالبشاره
رأيتهم في رحم النساء

زائرتي في الليل
هل رأيت في وجوههم أجملَ مما تعشق السماء
– رأيتهم أرضاً ، كأن النهار
أوقد فيها الشمس للضائعين
رأيتهم أرضاً ، شرايينُها
ترسم أسطورتها في الجبين .

زائرتي في الليل
نحن بنينا لغة الموت ،
وذقنا لبنَ الخساره
... زائرتي نحن قتلنا السنين
ولم نرَ التاج ولا الاماره

صوت (للحوار)

موساتُه في البحر
حيثُ تُرتخي الرياح
وحيثُ تُخفي سره المساكنْ
صخرتُه كالنوم
أو كزهرة الصباح .

* * *

في كل بندقيه
من كل رمل الهجرة الوليده
من رحم الدموع والدماء
في الماء ، أو في الشفة الندية
أراه مزهواً وفي عيونه السماءْ
مسرعةٌ ، تفضح في خطوته الرجوع
أراه في بهجة من يجوع
للنوم ، خلف « زهرة المدائن »

* * *

في كل بندقيه
في ساعد الغضون ، في أبراجها النقيه
أراه مستحماً

في يقظة الصفار
مسمراً في خشب الصليب فوق منحنى النهار

* * *

مرساته في البحر
حيث ترتخي الرياح
وحيث تختفي سرة المساكن
صخوته كالنوم
أو كزهوة الصباح

الفانتوم

« إلى سرحان الذي كتب أفضل منا »

حسن صقر

فلنبدأ إذن من النهاية كما تريد .
اربع رصاصات تنطلق بيني وبينك ،
معلنة بداية تعارف لاقتراب بعده ،
رصاص ينبعث نقياً كأنشودة الفجر ،
يحمل اليك رسالة من الافئدة المعذبة .
انا وانت سنعلم كل مايقال بعد ذلك .
الاذرع ستمتد اليك والأسنة لصدري ،
ولكن هذا لن يطفىء من حرارة العناق .
اطفالك يحومون بالورود حول البيت الابيض .
وأم تتمسح بأستار القدس من بعيد ،
وانا وانت قطبان في شعاع واحد .

* * *

لن ابوح لك بسر هذه الآلام ،
التي تزهر على جوانب دربي ،
وانا التمس شعاعاً يقودني اليك .
كما لن احدثك عن اطفال فوق المنبي ،
يُضربون بأعقاب البنادق ويُركلون ،
كلا ، بل سأترك كل هذا ،
لصوت مرعب ينطلق بعد قليل .
رومان اليوم ينهشون جدران الكنائس ،
ولحيتك معهم ترعف دماء بيضاء .
استمع الى قطار الفجر المقرور
انه يصفر لأولئك المتعبين
الذين يصنعون صلباناً في العراء .

* * *

تعال نجلس على شرفة الامباسادور :
في ضوء القمر نتجاذب اطراف الحديث ــ
حيث تتموج جداول الباسفيك ،
تسبح من فوقها منشآت ذرية ،
متناثرة كحبات النجوم تحت قدميك
هل تستطيع ان تقرأ شيئاً
على صفحة هذا الجبين المغضن ؟
يجب ان نتحدث اطول وقت ممكن ،

ليسمل كل منا أعين الآخر ،
قبل ان يبدأ هذا العمل المجيد .

* * *

ايتها الحفلة الصغيرة من الشعر الأشقر !
متدلية كأهداب غيمة مستهترة بالآفاق ،
هل لديك متسع من الوقت ؟
لنتكلم قليلا عن الشرق الاوسط .
ايتها الأغطية المتجددة كل لحظة !
ايها النسغ المبدع يتموغ في التراب !
ايتها الجدران الباردة كالصقيع !
لماذا كل هذه الكبرياء ؟
ولانتحدث عن الشرق الأوسط !

* * *

هذا العناق اختارنا منذ الازل .
دعنا نتبادله بحرارة تذيب صقيع العالم !
وأن كان لايستطيع هذا الضياء ،
الذي سأدمره في عينيك ،
ان يعيد الى الحياة ،
احبة تناثروا في الشرق الأوسط .
كما لن تستطيع هذه الدماء ،
التي ستشربها اميركا من صدري ،

ان تعيد الخصلة المتهدلة الى اللمعان .
ومع ذلك فلنتبادل قبلاتنا بحرارة ،
كما لو ان العالم يركع من اجل ذلك .

* * *

كانت الفانتوم رائعة كشروق وردي ،
ومرت رغم كبريائها على سردابي البارد ..
هل تعلم انها جثمت على صدري ؟
وهمست في أذني كلاماً لايقال :
يالها من ذكريات مريرة !
عندماتدفق الموتى من الذيول المزركشة ،
وجلسوا الى جانبي على رؤوس الدبابيس .
كانت طائرات لم تشهدها العصور :
اجنحة تخف بالباب المتداعي ،
وهدير يزحف حاراً في الشرايين ،
كأنك مطلق في دمائي أنياباً مسمومة ..

* * *

كنت تغفو مترفاً في الامباسادور ،
تحيط بك اغطية من جفون الاطفال ،
وفي الزاوية جلس اليهود القرفصاء ،
يلوحون لك بالمراوح ليجرعوك النعاس ،
واحلامك سرقوها الى وديان بعيدة ،

واجتازوا بك الدروب الى منزل كالحمامة .
كنت متكبراً لاتريد الكلام ،
روبي انت لاتقدر هذه المشاعر !
روبي انت اذن على خطأ !

* * *

كان القدر ينتظرني ،
ساعة كنت ارفع الصلاة .
ولقد وصلت تواً الى الباب ،
موحياً من كل قلبي بالعناق .

الشيخ مبارك

عبد العزيز هلال

لا أعرف حتى الآن أي سبب يدفعني أحياناً للتحدث الى نفسي . صدقوني أنا عندي أصدقاء كثيرون طيبون مثلكم ، فضلا عن رفاقي الآخرين من عمال الميناء ، الذين أعمل معهم طيلة النهار . ومع أننا نتحدث بصراحة ، يبوح بعضنا للبعض الآخر بأسراره بالبساطة نفسها التي نعبر فيها عن متاعبنا ومسراتنا اليومية ، أعني دون حرج ... مع ذلك ، أكتشف نفسي في كثير من الاحيان ، وأنا في هذا الوضع الغامض ، كما هو حالي الآن مثلا ، أتحدث اليكم دون أن أراكم ، دون ان تكونوا حقيقيين ، إذا سمحتم لي بهذا التعبير ، كذلك اجدني وأنا غارق في مثل هذا الحديث مع نفسي . وانني لأتساءل : لماذا ؟ هل تجدون لي تفسيرا معقولا ؟

أنتم ترون اذن ... ان هذه الحالة تسبب لي كدرا . ليس بسببها بالضبط . انما هي في الحقيقة سخرية اصحابي . الاسوأ من هذا انني صرت عرضة للهزء وسلاطة اللسان .. خمنوا ممن ؟

من زوجتي !

اي والله من زوجتي ! فتصوروا اذن !

اليوم مثلا ... افقت من نومي عند الفجر لاذهب الى الميناء مبكراً كعادتي ، حريصا على ألا أوقظها . وبعد ان غسلت وجهي برشقتين من الماء ، طفحت في نفسي شهوة ليست من عادتي .. اعني ان اشرب فنجاناً من القهوة ، شأن بعض عبـــاد الله ، وانا جالس على الفراش . ولا ادري عندئذ ما حدث . اعني .. يبدو انني ، دون شعور ، دخلت في الحالة التي احدثكم عنها حتى لكزتني المرأة في ظهري ، وهي تنهي :

- ارجع الى عقلك يا رجل !

وطبعاً تنبهت .. في الواقع ارتبكت ، فقد فاجأتني ، وكنت اخشى هذا منذ ان شرعت تسخر مني بتلك الطريقة الخالية من الحيـــاء . قلت لها ، من غير ان أعرف ما أقول :

- هل استيقظت ؟

وكأنني لعبت بكبسولة القنبلة ، فنبرت بصوتها العريض الوقح ، الذي زاده النعاس بلادة :

- نعم ؟ أأظل نائمة وانت قاعد عند رأسي تقرقر مثل قط عجوز ؟

ثم اعتدلت من رقدتها جالسة ، وقد بدا لي في الحال ان سحنتها قد حملت نذير صباح لن يمر على خير :

- اسمع يا رجل . انت لا بد .. مؤاخ .. انت تعـــاشر - بسم الله الرحمن الرحيم - جنيا .

قلت متجلدا لأخزي الشيطان :

- بالله عليك ، لا تكوني سخيفة . انت تعرفين انني لا أعاشر غيرك .
- اذن ، هو الشيطان دخلك .. استوطن نفسك .
- يا امرأة لا تعكري صباحنا ، الا يكفي انك لا تفهمين ؟
- أفهم او لا أفهم .. المهم انني افهم شيئاً واحداً .. هو حاجتك الى الفحص .

لا حول ولا قوة الا بالله ! طيب ، ارتاحي انت ، ارجعي للنوم .

- اقول لنفسي .. لماذا لا تذهب الى الشيخ مبارك وتعرض نفسك عليه؟
- يا امرأة صلي على النبي في هذا الصباح ، ما هذا الكلام ؟

وبالطبع .. امرأة مثل امرأتي هذه ، لا تظنوا انها تسكت بسهولة عندما تجد مادة للثرثرة والصياح ، وهي التي تستطيع ان تجعل من اي شيء مادة صالحة للحديث ساعات وساعات . ماذا اقول لكم ؟ غسيل الجيران مثلا .. ما الذي يعنيه غسيل الجيران ؟ مع هذا فان غسيل الجيران عندها يمكنه ان يتحول الى جريدة بكاملها !

المهم انني هدأتها بقبضة يدي حتى سكتت ، ورجعت الى رقدتها وأغمضت عينيها . غير انني ، بعد نصف دقيقة ، سمعتها تقول بهدوء ، ولكنه الهدوء الألعن من تكسير الرأس :

- اي والله يا ابن العم ! يليق بك ان تجن في آخرة الزمن !

استعذت بالله منها ومن فألها . ولكني - دون ارادة - دافعت ظنها :

- اسمعي يا امرأة . الا يحق للانسان ، احيانا ، ان ...

ماذا اقول لها ؟

وهكذا ، زدت الطين بلة كما يقولون .. فتحت شهيتها :

- ان ماذا ؟ هه ؟ ظريفة منك يا رجلي ! ظريفة منك يا عمود بيتي وابا عيالي ! فما هي الا ايام اخرى ، حتى اراك داشرا في الطرقات ، والأولاد من حواليك يصفقون ويصيحون : مجنون مجنون !

- مجنون مجنون ، كفى اذن !

- انت ستنتهي الى هـــذا المصير حتما .. تتشرد في الطرقات والصبية يلاحقونك ...

وتحركت يداي تريدان الاندفاع الى رقبتها ، وانا اصرخ :

- قلت لك كفى !

ورايت الذعر في عينيها ، وهي تنكمش في رقدتها مثل كلبة مريضة ، وفي الحال تمالكت نفسي وكففت يدي الهائجتين ، وقلت لها :

اسمعي ... لو انصت الى كلامي .. اعني لو فهمت ما اقوله عندما اكلم نفسي، لفهمت اذن . وبدلا من الردح بهذا اللسان الطويل ، كان حرياً بك أن ... تساعديني .

- لماذا ، اسم الله حولك ؟ ما الذي اصابك ؟ انت قوي مثل بغل وانت تعمل وتكسب بحمد الله ، وعندك بيت وعيال .

- لا لا ، انت لم تدركي العلة . اعني ...

- تعني انك مريض .. اكنت اقول لك غير هـــذا . انت مريض حقا ويلزمك علاج .

شعرت بأنني زنقت نفسي حينما طلبت النجاة . فقلت لها متخلصا :

- طيب طيب ، سأحاول استشارة طبيب النقابة .

- لم اقل إنه الطبيب .. عليك يلزمها الشيخ مبارك . هـــذا ما سبق ان قلته لك بصراحة .

هذه هي حالي . وما هذا الذي رايتموه الا مثل واحد مما اعانيه منها كل يوم . لا تظنوا ان هذه الحالة في ذاتها هي مصدر تعاستي .. ابدا .. فهي حالة طبيعية ، فيما اظن ، بل اؤكد لكم ، لا تجعلوا من شكوك امراتي الجاهلة سببا لاثارة الشك في نفوسكم انتم ايضا . حقا .. انا اعترف بأنني احس بهذه التعاسة التى لاحظتم دلالتها في حديثي ، انتم محقون من هذه الناحية . انما اؤكد لكم ان تعاستي هذه هي مصدر علتي ، اعني سبب هـذه الحالة . اقول لكم اذن ما هو سبب هذه التعاسة ؟ اتنتظرون مني هذا الاعتراف حقا ؟ بصراحة ، ودون ان تضحكوا مني او يصيبني مكروه ـ لا سمح الله ـ وانا رب عائلة ؟ ولماذا العجب لقد حاولت مصارحة امراتي ، في هذا الصباح نفسه ، فماذا لقيت فيها وهي زوجتي وام عيالي ؟

لقد تراجعت الى الوراء باستنكار شديد ، وضربت فخذيها بكفيها نادبة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ! الرجل فقد عقله فعلاً !

ـ والله يا امرأة ، والله اقول لك .. ان هذا الذي يحدث لي كله .. سببه أني وجدت عقلي .. انني صرت رجلاً يدرك الأمور على حقيقتها . لم أعد رجلاً جاهلاً لا هم له إلا حمل الأثقال من أجل لقمة العيش ولو كانت مرة ، مثل أي حمار مسكين في هذا الكون .

ـ أهذا كلام عقلاء يا ناس ؟

ـ نعم ، انت محقة في أن تعجبي . فهـــذه هي الدنيا . أنا نفسي أرى الأمور من حولنا غير طبيعية .

واقبلت عليّ حدوبة ، وكلمتني بلطف بالغ ، كما لو كنت طفلها الصغير يرتعش من الحمى :

- وكيف ، يا ابن عمي ، كيف تراها ؟ ها ؟
- اعني .. ليست واقفة كما ينبغي .. مقلوبة .. نعم ، انها مقلوبة .
- تعني .. واقفة هكذا ، على رؤوسها بدلاً عن ارجلها ؟
- هكذا تقريباً .
واذا بها تضرب كفاً بكف ، وتنوح :
- آه ، هذا هو الامر إذن ! صدق ظني !
وبينما كنت احملق فيها يائساً ، واعتزم الانصراف عنها الى عملي ، التفتت الي حدوبة مرة اخرى ، وكلمتني كما لو كنت طفلها ذاك فعلاً :
- قم ، قم آخذك الى الشيخ مبارك .
وكدت انفجر من جديد :
- ارجعنا الى شيخك المبارك هذا ؟
- بالطبع ، ولم لا يا ابن عمي ؟
اسمعي ، أنا لا احب من المرأة ان تمزح مع زوجها بهذه الطريقة .
- أنا لا أمزح ..
واطلقتها في وجهي بوقاحة :
- .. أنا لا امزح مادمتُ لا ارى الاشياء واقفة على رؤوسها .
سكتَتْ ، مرغماً . فهل توقفت هي ؟ بل تشجعت وتمادت :
- هيا ، انه شيخ مبارك حقاً ، اسم على مسمى .. فهو صاحب كرامات ، وان اعتى العفاريت والشياطين لا يجرؤ على الصمود امامه . سوف تجد الراحة على يديه . انت تعرفه ولا شك ، فهو مشهور ، يعرفه الناس جميعاً .
ما رأيكم ؟ هل من فائدة إذن ؟ بالنسبة لامرأتي ، ما كانت ثمة طريقة

أخرى سوى ان اترك البيت واذهب الى عملي ، بعيداً عنها وعن سيرة شيخها وكراماته .

وفي الميناء لم يكن وقتنا ليخلو من فترات بطالة ، نجلس اثناءها على هذا الرصيف او ذاك ، نرقب ما تحمله امواج البحر من وعود ، ندخن التبغ ، ونحن نثرثر تلك الثرثرة التي اصبحت في نظري خليقة بالجمل اغلب الاحيان ، نحوم حول الاشياء والامور دون ان نبلغها . المهم .. في احدى هذه الاستراحات ، حدث شيء لفت نظري باهتمام زائد . دعوني التقط أنفاسي اولاً ..

* * *

نعم .. فقد رأيت الخواجة الياس .. انتم قد لاتكونون على معرفة بالخواجة الياس ؟ انه مدير إحدى شركات الملاحة البحرية . أنا اعرفه جيداً ، ليس من خلال مهنتي وحدها ، بل من خلال خدمات أخرى ايضاً ، خاصة بشركته ، أربح منها بعض الليرات الاضافية . ولم يكن يلوح لي ان في عقله شيئاً غير طبيعي . انه رجل أعمال ناجح – كما يقولون ، وشركته تسير بصورة حسنة وبفضل ادارته ، بل انها تثير السخط لدى الشركات الاخرى – تعرفون مايفعله الحسد في نفوس الناس ، أليس كذلك ؟ حاصله .. ان الخواجه له وزنه بين الخواجات ، وهم ينادونه بالياس بك . فما هو قولكم في أنني رأيته يهبط من سيارته ، ويتقدم الى ناحية من الرصيف الآخر ، ويقف في وضع من ينتظر شيئاً ما ، ربما ، وهو يتحدث الى نفسه ؟

بعيني هاتين ، اللتين كانتا مفتحتين تماما ، رأيت الخواجه الياس عندئذ وهو يتحدث الى نفسه ! انا لاأدعي بأنني سمعت صوته . غير ان حركة شفته المستمرة كانت واضحة ، وفضلا عنها كانت يداه تتحركان بعصبية ، حركة اليدين

المألوفة عندما يتحدث المرء بحتق مع آخر يواجهه ، رغم أن أحداً آخر لم يكن هناك ، قريباً منه على الأقل . كل هذا وذاك اكد لي ان الخواجه ، والخواجه الياس بالذات ، يكلم نفسه !

ما كنت لأصدق لو أن أحد زملائي هؤلاء قد اخبرني أمراً كهذا . انا أعرف انهم يبالغون احياناً في الخلط بين الحقيقة والخيال ، مايحدث فعلاومايتمنى احدهم ان يحدث . الا ان المسألة واضحة هنا .. أرى بعيني مايحدث ، وأتأكد منه مثلما يتأكد أحدكم من أي شيء يلمسه لمس اليد .. أعني ان الخواجه الياس يتحدث الى نفسه فعلا .

ولكني أمعن في التأكد ، وربما لآمن على نفسي من سخرية الرفاق ،وأنا لست بحياً منها كما سبق ان اخبرتكم .. نبهتهم الى مارأيت .

فما هو ظنكم ؟

كل مافعلوه هو انهم ضحكوا ضحكة صغيرة ،بل اقرب الى ابتسامة ثم رجعوا الى ما كانوا فيه من ثرثرة ! أعني لم يروا تلك الظاهرة الغريبة ، الصالحة للسخرية كما فعلوا معي !

كأنكم صببتم على رأسي ماء بارداً . لماذا سخروا مني أنا إذن ؟

ومايكون رأي تلك المرأة ، أعني زوجتي؟فلو كانت هنا الآن،ورأت الخواجه الياس في هذا الوضع ، أكانت تهرع اليه ، وتجره من يده – مثل فعلها معي – مهيبة به لأن يبادر ويذهب الى الشيخ مبارك ؟

الدفء

وديع اسمندر

– بالليلة باردة . اليس كذلك ؟

يا إلهي !! اخاطبه كما لو كان حياً . على اية حال لا يوجد احد هنا والا لاتهموك يا ابا يوسف بالجنون . ولكن ماذا بوسعك ان تفعل وانت وحدك مطالب بحراسته . ! ؟

– اجل وحدي !

رددها بأسى .

نظر اليه بغضب ، سلط على وجهه انوار فانوسه اليدوي ، خيل اليه انه يبتسم !

اطفأ الفانوس ، اشاح بوجهه بسرعة ، رنا بنظره نحو السماء . الهواء

الثلجي ينحدر عن سفح الجبل ، والسحب القاتمة تمتد ببطء في كل الاتجاهات، تطفىء النجوم الواحدة تلو الاخرى . وفي الوسط حيث اختبأ القمر، لم تظهر سوى بقعة مشعشعة بالنور الباهت لم تلبث ان زالت امام عينيه ، خلف غيمة سوداء كبيرة.

ــ البرد يقص المسمار !

امتدت يده الى جيبه . اخرج علبة الثقاب ، اضرم النار في كومة حطب كان قد جمعها في الصباح ، فما هي الا لحظات حتى اندلعت ألسنة اللهب سهاماً دافئة تتراقص في الفراغ ليخنقها البرد .

ــ أح ..

نفخ في يديه ، قربها من النار .

ــ ابتعد عن المدفأة .

عاد الطفل الى الوراء كفراشة داهمتها عقلانية مفاجئة . احتضنته امه بين يديها ، قبلته ، أودعته سريره الخشبي .

ــ نام يا ابني نام ، لاجلب لك طير الحمام .

فتح الباب . التفتت الزوجة ، كفت عن الغناء ، دخل الرجـــل باحثاً بعينيه في الجدار عن شيء ما

ــ ما الخبر .؟

ــ نسيت معطفي !

ناولته المعطف المهترىء . قالت بتوسل .

ــ اما بوسعك البقاء الليلة ؟ الطقس بارد جداً ؟

ــ وهو ؟

ــ لن يهرب !

— كلا لابد من حراسته .

تأوهت الزوجة . أجهش الطفل في البكاء ، صفق الرجل الباب وراءه .

— نام يا ابني نام .

هبت نسمة ريح باردة ، تماوج اللهب بين يديه .

— آه . ما اجمل الدفء !

وانت : ألا تشعر بشيء ؟! ويحك يا ابا يوسف تعود لمخــاطبته ثانية .

حسناً ماذا يهمه هو ؟! بعد قليل تلتهم النار آخر حطباتي ويبقى جندي عرضة الريح وربما المطر والثلج ايضاً — تلك الغيمة المغبرّة لا تعجبني — بينما يظل هو واقفاً كشجرة سنديان عملاقة لاتطالها فأس حطاب .

— من منا يحرس الآخر ؟!

غابت الشمس سريعاً هذا اليوم ، وتلك الساحة الملعونة اقفرت حتى من الشحاذين . لم يبق الا انا بكامل سلاحي ، وهو على صليبه الخشبي الكبير . يرقب كل منا الآخر . يا إلهي ما اقسى ذلك ، قيل عنه انه مات .

ومع هذا حيناً أختلس النظر الى وجهه الطفولي يخيل إلي انه لم يمت .

كثيراً مارأيت ابتسامة حزينة تطفو على شفتيه الصغيرتين ، وفي عينيه — من يصدق ذلك — يبرق غضب مريع .

— لعله ضاق بصحبتي !

النعاس يتعب اجفاني ، وحالة الطقس تزداد سوءاً ، وهو في صمته القاتل يبعث الموت في نفسي . آه . اعرفه لا يتكلم ، انه لايملك لساناً ، ولم أره مرة واحدة يفتح فمه ، ربما لو تكلم لشتمني ، ومع ذلك فقد ضقت ذرعاً بهذا الصمت . قل اي شيء

يا هذا ، انما لا تبقى صامتاً تحدث نفسك مثلي . ألا تعلم ان لاجدوى في ان يتكلم المرء مع نفسه ؟!

ــ تعبت يا صاح واصابني الظمأ .

آه .. ليت في ميسوري الهرب الى اقرب حانة كالآخرين . لعله انت من قال : قليل من الخمر يفرح قلب الانسان . قد تكون انت او أي شخص آخر . وهذا كلام صحيح . المهم هو انك وحدك السبب في حرماني. تراني مشدوداً اليك، احدق في وجهك عبر الظلام، وبنفسي تثور رغبات جمة لا اقدر على كبتها . انظر !! ألا ترى الانوار الحمراء تلمع وراء الستائر المسدلة ؟! اراهنك ان الناس جميعاً الآن مابين سكارى ونيام ، ينعمون بالدفء، يتقلبون حيث يريدون الا انا أرتعش من البرد ولا يسعني الميت إلا بجوارك !

ــ أليست لك زوجة او اطفال ؟!

يبدو أنني اصبت بالجنون . يا ربي أكاد أموت برداً ، وتلك النار الرديئة بدأت تلفظ انفاسها ، وفي كل مرة اقطع العهد على نفسي في ان لا احدثه ثانية ، وما ان يأتي المساء وتقفر الساحة حتى اخاطبه من جديد .

ــ كم هي عادة سيئة !

اخترقت رياح شمالية باردة داخل معطفه المهترىء ، اخترقت ثيابه ،شعر بها تنخر عظامه كأشواك صحراوية ، اكفهر وجهه ، ألقى نظرة وداع حزينة الى النار ، الجمرات تعبث بهــا الريح ، يتطاير منها الشرر ، لم يبق إلا الرماد .

هز كتفيه بأسى ، تجمع على نفسه ، ضم قدميه الى صدره ، أسند رأسه على ركبتيه ، ثم اطبق جفنيه المتعبين ، وهو يتمتم :

- نام يا ابني نام ... !!

نزل المصلوب الى الارض ، وبيديه الداميتين حطم اخشاب صليبه قطعاً صغيرة ، كومها فوق بقايا الجمر ، نفخ فيها ، أدمى الدخان عينيه ، انتظر قليلاً حتى تأججت النار ، ومضى .

تسلل الدفء الى الرجل النائم ، زال انكماشه ، تأوه ، تمدد على الارض ، وراح في سبات عميق .

قسطاكي الحمصي

نظرة في شعره

حارث طه الراوي
– بغداد –

ما أكثر رواد الأدب الذين لايعرفهم الكثيرون ، حتى لتكاد شهرتهم المحدودة أن تغري النسيان بأن يسدل ستاره الرهيب على آثارهم الحيّة المتألقة ، ولكن هيهات ... لأن الحقيقة لاتحجب ...

إن أمثال هؤلاء الروّاد لم يرتكبوا جريمة التطبيل والتزمير لأنفسهم ، ولم يتيحوا الفرصة لمتصيدي فتات موائدهم بأن يحملوا أمامهم المباخر وينفخوا في الابواق الذهبيّة !

ومن هؤلاء الروّاد الطيبين المتواضعين « قسطاكي الحمصي » الذي ولد في حلب سنة ١٨٥٨ :

وأصل أديب الشهباء « قسطاكي » من « حمص » . فقد هاجر أحد أجداده وهو الخوري « ابراهيم مسعد » الى « حلب » في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلاد فلازمته النسبة الى « حمص » ولزمت سلالته من بعده :

صبٌّ وإن نسبت إلى	حمص منابته القديمه
فلأنت يا حلب العلا	وطن لأسرته الصميمه
مضت القرون ولم تزل	بربوعها أبداً مقيمه [1]

وتعلّم « قسطاكي » في احد كتاتيب الروم الكاثوليك بمدرسة الرّهبان الفرنسيسكان لمدة ١٥ شهراً ثم انصرف الى التجارة وجمع ثروة طائلة . ولكن ثروة النقود لم تكن هدفه الأسمى في الحياة بعد أن تملكه حب الأدب ، ولهذا أخذ يقرأ علوم العربية على بعض المعلمين في أوقات فراغه . ورحل الى « مارسيليا » و « باريس » مرات عديدة ودرس الفرنسية فأتقنها ، ولم يقطع صلته بالأدب العربي الحي القديم فكان « لايطالع غير كتب الفصحاء حتى صار يأبى قراءة كتب غيرهم أشدّ الإباء » [2] .

وهجر التجارة سنة ١٩٠٥ وشرع برحلات متتابعة الى « فرنسة »

---

(١) « مختارات من نظم الأديب الكبير الاستاذ قسطاكي بك الحمصي الحلبي — الجزء الأول — المطبعة المارونية بحلب سنة ١٩٣٩ » ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢) ذكر ذلك في رسالة منه الى الاستاذ خير الدين الزركلي » — « الأعلام » ط ٢ ج ٦ ص ٤١ .

و « انجلترة » و « ايطالية » و « القسطنطينية » و « مصر » . ونظراً لما كان يتمتع به أديبنا الحمصي من مكانة أدبية مرموقة فقد انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق .

ولم يكن الأستاذ متضلعاً في الشعر والنقد الأدبي فحسب ، بل في علوم اللغة ايضاً . وله رسالة لغوية في الرد على الأب « انستاس ماري الكرملي » كان أرسلها الى المجمع اللغوي بمصر ونشرت في حينه بمجلة « الكلمة » الحلبية .

وكانت تربطه مع « الشيخ ابراهيم اليازجي » صداقة وثيقة خلدتها بعض المساجلات الشعرية بينهما . وقد نشر « الحمصي » اشهر قصائده في مجلة « اليازجي » الشهيرة : « الضياء » .

وأهم مؤلفاته المطبوعة « منهل الوراد في علم الانتقاد » ، ويقع في ثلاثة اجزاء ويعد بحق في طليعة كتب النقد الادبي عند العرب خلال الربع الاول من القرن العشرين ، لما تضمنه من مادة غزيرة ونهج جديد في النقد شق لمؤلفه طريق الريادة . و « السحر الحلال في شعر الدلال » في سيرة خاله جبرائيل الدلال » و « ادباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر » ، وديوان شعر عنوانه « مختارات من نظم الاديب الكبير الاستاذ قسطاكي بك الحمصي الحلبي – الجزء الاول » طبعته واهدته مجلة « الكلمة » الحلبية الى قرائها سنة ١٩٣٩ م .

وفي التاسع من آذار سنة ١٩٤١ فقدت « الشهباء » بل فقدت الامة العربية اديبها الرائد الجليل المرحوم « قسطاكي الحمصي » . وكم كان صديقه « خليل مطران » صادقاً عندما قال في رثائه :

أفراقاً وأنت آخر باقٍ   من رفاقي كانوا أبرّ الرفاق

نظرة في شعره :

في المقدمة التي كتبها « قسطاكي الحمصي » لديوانه الآنف الذكر ، حلل الشعر تحليلاً صحيحاً وجيلاً جنح فيه الى الجوهر واللباب بقوله :

« .. بل هو روح يمازج النفوس فيصعد بها في عوالم الغيب ، فتتخطى مناطق القياس والتقدير الى عوالم الشك والريب ، وتجوز املاك الحدس والظنون ، وتخترق الحجب فتترك خلفها ابعد مرئيات العيون وتجرد من عناصر الوهم والتخيلات احوالا ومخلوقات تحسبها لديها من المشهودات » (٣)

وقال عن مهمة نقاد الشعر ما نصه :

« .. فيرى فيه الناقد البصير غير ما يرى القارىء البسيط ، إذ هذا لا ينظر غير الحروف ولا يستدل بها على غير الألفاظ ومعانيها الظاهرة ، واما ذلك فلا يرضيه إلا ان يتطلع الى ما وراء ذلك وان ينظر بعين الشاعر نفسه ويتلمس الوقوف على احداثه النفسانية ويتجسس عواطفه ساعة تأليفه تلك القصيدة او ذلك البيت ، بل يطمع ان يجس بيده صدر الشاعر فيعدّ عليه دقات قلبه ، وأن يمتد بصره فيطلع على اخفى حركات نفسه وادقّ شعوره واهوائه كما لو كان شعره مرآة ذلك كله . وهذا ولا ريب مطلب لا يتسهّل مناله لجميع طلابه ، ومطمع لا يتيسر للعامة الطامعين من رغابه ، وهو فرع من السيكولوجي المعرب بعلم قوى النفس او بعلم النفس » (٤) .

وهذه وجهة نظر جديدة في مهمة الناقد لم تكن مألوفة عند نقادنا

---

(٣) مختارات ص ٣

(٤) مختارات ص ٧

الغابرين الذين اتجهت عنايتهم الى الالفاظ بمعانيها الظاهرة ، على الاغلب ، والى نقد الشعر من زاوية اللغة والنحو . واتجاه « الحمصي » هـذا ، معروف ومألوف عند نقاد الفرنجة . والظاهر انه قد وقف عليه من خلال مطالعاته الادبية بالفرنسية . .

ويفترض في الشاعر الذي ينظر الى الشعر والى مهمة النـاقد من الزاوية الآنفة الذكر ، ان يميل الى شعر المعنى المدعوم بالتجارب ، المثقل بالعواطف ، الذي تتألف عليه الابتسامات وتترقرق الدموع . ولا يخيب بعض شعر « الحمصي » ظننا في هذا المجال . قلتُ : بعض شعره ، لأن البعض الآخر يضعنا وجهاً لوجه امام النظم التقليدي المألوف .

قال « سامي الكيالي » عن اغراض شعر « قسطاكي الحمصي » :

« كان ينظم الشعر في كل مناسبة ، بل كان الشعر وسيلته للإفصاح عن نزواته السياسية ونزعاته الاجتماعية والكثير من اغراض الحياة الطارئة ، فما من حادث من الاحداث الوطنية او العالمية الا اعلن عنه بمنظومة من منظوماته التي التي تصور طابع الادب في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، ادق تصوير » (٥) .

وقول « الكيالي » صائب فيما يتعلق باستجابة شعر « الحمصي » للاحداث السياسية والاجتماعية واغراض الحياة الطارئة . ولكن هل كان شعره مرتبطاً بتلك الاغراض فحسب ، بعيداً عن اختلاجاته الوجدانيـــة العاطفية وتأملاته الفلسفية ؟ لا نستطيع ان نقول ذلك اذا توخينا الدقـة . .

اما القول إن شعر « الحمصي » يصور طابع الادب في اواخر القرن

---

(٥) قسطاكي الحمصي - بقلم سامي الكيالي – مجلة « الحديث » الحلبية العدد (٤) السنة (١٥) نيسان (ابريل) ١٩٤١ .

التاسع عشر واوائل القرن العشرين ادق تصوير، لا ينسجم مع نفحات التجديد المنعشة التي هبت من بعض شعره؛ فقد تخطى شاعرنا في بعض شعره النهج التقليدي لشعراء القرن الماضي الى آفاق جديدة لم يبلغها سواه في حينه .

واذا لم يبلغ نصيب « قسطاكي الحمصي » من التجديد ما بلغه نصيب شعرائنا في المهاجر الاميركية او نصيب شعراء مدرسة « ابولّو » من التجديد، فان نصيبه الضئيل كان ذا اثر هام اذا نظرنا اليه من زاوية فترته الزمنية . لقد اعلن « قسطاكي الحمصي » في موشحته « ميلاد الربيع »(٦) التي نظمها سنة ١٨٩٩ ثورته الصريحة على الاساليب التقليدية القديمة في نظم الشعر . فقد سخر من الشعراء الذين يذرفون دموعهم على الدمن والطلول ، ويندبون الربيع او بيت الشَّعَر والخيال الذي زار ليلاً ورحل ، والحصان او البعير الذي نفر ، وما شاكل هذه المواضيع التي تصور بيئة بدائية تخطاها الزمن . ودعا الشعراء للعودة نحو الطبيعة والكون واعاجيبه الظاهرة والخفية ، وقال لهم بصراحة انه يقتدي ، في هذا المضمار ، « ببني الافرنج ارباب العلوم » في وصفه لميلاد الربيع في حلب :

أَنتَ من يامن على تلك الدِّمنْ · يذرفُ الدَّمعَ ويستبكي الطلولْ

كم تناديها ولو اصغت لمن · جآها مستنطقاً كانت تقولْ

عدْ عن جهلك يا هذا الغبي

كن سواراً اوقريطاًاو جريرْ · او زهيراً او إياساً او هلالْ

او ابا النشناش والجمَّ الغفيرْ · من ملوك الشّعْر ارباب المقالْ

كلّكم يفعل افعال صبي

---

(٦) مختارات من ٢٤ — ٢٩

تندبون الرّبع او بيت الشّعَرْ او خيالاً زار ليلاً ورحلْ
او حصاناً او بعيراً قد نفرْ تضعون الدرّ في عنق الجملْ
وخسيس التّرب فوق الذّهبِ

منذ ألفي سنة بل ضعفها دأبكم ترديد هذا النغمِ
تلك حال، حسبنا في وصفها حال قوم سلكوا في الظُّلَمِ
واضاعوا وقتهم في اللعبِ

ذاك أو يقرب منه ما رواه عنكم التأريخ في فن القريضْ
قد جريتم كل شوطٍ في مداه ولكم في نظمه جاه عريضْ
من نسيبٍ او مديحٍ كذبِ

وعن التنقيب اعرضتم سوى ما اتى من مثلٍ او قافيهْ
وعظيم الكون مع ما قد حوى من اعاجيب شؤون خافيهْ
لم يكن فيه لكم من سببِ

فكفى التشبيب والفخر المملّ ودعاو عابها اهل العلومْ
واسمحوا ان يقتدي هذا المقلّ ببني الافرنج أرباب العلومْ
واسمعوا ما قاله في حلبِ

ثم يشرع الشاعر في وصف ميلاد الربيع في حلب بعد ان ينفخ الروح في الجو والارض ويزاوجها ، ويصور لنا خلافاً بين الزوجين حول مولودهما : الربيع الذي تريد الأم اسقاطه قبل الاوان فيحتدم الخلاف بين الاب (الجو) وبين الام (الارض) ، عندئذ تتوسل الكواكب الى الشمس ان تتدخل، فتلبي الشمس هذا الطلب .

عندهـا برز المولود في حلل تزري بأبهى سندس
ويبدع سرّه لم يختف صبغت حتى بدت كالاطلس
بضياء الشمس أم العجب

وغدا يبسم عن نور بدا مثل درّقت فيه الذهبُ
مذ رآه بلبل الحيّ شدا بأغانٍ ماشداها مطربُ
فجلا من غمة المكتئب

ولعل « الحمصي » هو أول شاعر عربي معاصر نظم الموشّح في الرثاء.
فقد رثى[7] صديقه « الشيخ ابراهيم اليازجي سنة ١٩٠٦ بموشحة طويلة من نوع « المرصّع » تكاد ان تكون ضرباً من « الشعر الحر » الذي ذاع نظمه في أيامنا وقد استهلها بالمقطع التالي :

ياراحلا والقلوب في اثره تتقطّعْ
وغائباً لم نقف على خبره ولم نطمعْ
وياحبيباً زواه عنا الرّدى ولم يشفعْ
في بعده شافع الحجى

هل عمي الدهر عن جميع الورى فلم يدفعْ
يومك ياغاية المنى

لوكان فداؤك بالارواح شيئا معقولا أو أمراً مقبولا
لبذلناها

قد كنت لنا شمس الاصباح لما كسفت منا انفجرت مقل نظرت
ماأدماها

(٧) مختارات ص ٦٤ — ٦٧

وتتجلى نزعة التجديد عند « الحمصي » بأجلى مظاهرها ، عندما يصف الطبيعة ، فهو لا يصورها تصويراً حسياً مألوفاً ، وانما يمتزج بها وينفذ الى لبابها وينفخ كائناتها الجامدة روحاً حية ، فتحس وتتحدث وتشكو وتتألم . من ذلك موشحته « شباب الربيع أو من حلب الشهباء الى اللكام »[٨] التي صور فيها رحلته على الحصان من « حلب » الى جبل « اللكام » فامتزج، وهو يصور هذه الرحلة الممتعة بجمال الطبيعة وبساطتها ونفخ فيما احاط به من كائنات جامدة روح الحياة :

عندهذا الارض ضجّت بالدعاءْ | لجلى حسنها فعل شكورْ
وغدت ناشرةً نحو العلاء | من بخار الماء مايحكي البخورْ
وتلت أزهارها الحمد سُورْ

وما تكاد البساطة الريفية تبش بوجهه بالسعادة الحقيقية حتى يتوق كسلفه « روسّو » للعودة الى الطبيعة والتنصل من زيف المدنية وأضاليلها ونباح ذئابها البشرية :

ما ألذّ العيش عيش المرء في | بقعةٍ قد جمعت كل الجمالْ
من جبال ماؤها من قرقفِ | ومروج ورياضٍ ودغالْ
واذا أشتى الى واد نفرْ

ونعيجات له من سمنها | ولباها خير مطعومٍ مقيتْ
ودجاجات يرى في كنّها | كلّ يومٍ طارف البيض شتيتْ
واذا ماشاقه اللحم نحرْ

ونباتات له في زرعها | بغية العامل للربح الصّريحْ
وله من بعدذا في قطعها | لذّة الآكل ذي الجسم الصحيحْ

(٨) مختارات ص ٤٧ — ٥٧

ناعم البال خلياً من كدر

لايرى أيان ماسار حسود ٭ يظهر الودّ على بغض كمين
أو لئيم الطبع مكاراً كنود ٭ يتحامى شرّه في كل حين
او عدواً او كذوباً محتقر

او جهولا ساحباً ذيل الغرور ٭ يحسب الدنيا له قد خلقت
يتباهى بفساد وفجور ٭ زاعماً قرينته قد رزقت
من ذكا افكاره علم البشر

ويختم الشاعر موشحته الوجدانية الرقيقة بمقطعين وصف بهما غروب الشمس في البحر ، فلم يشبهها بالجمرة المنطفئة كما هو شأن الوصف التقليدي ، وإنما شبهها بالعصفور ، وشبه البحر بالافعوان ، وهو تشبيه غير مطروق في العربية في مجال ابتلاع البحر للشمس :

فاذا البحر قد بان له ٭ ماله في الأرض من شبه عظيم
وبأقصاه بدا ماهاله ٭ اذ رأى الشمس لها وجه سقيم
تستغيث الخلق في دفع الخطر

ورآها هبطت فوق العباب ٭ مثل عصفور أمام الافعوان
ثم عجّ الموج يعلو كالهضاب ٭ لابتلاع الشمس في بضع ثوان
يالبركان ببحر قد فغر

وقد ساهم « قسطاكي الحمصي » في انقاظ الهمم العربية والعزائم في اواخر القرن التاسع عشر ، عندما كان ظلام الحكم العثماني مخيما على أقطار أمة العرب ، وكان ، في ذلك ، يحذو حذو صديقه « الشيخ ابراهيم اليازجي » الذي نظم سنة ١٨٨٣ قصيدتيه الشهيرتين :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب   فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

و :

دع مجلس الغيد الاوانس   وهوى لواحظها النواعس

فقد نظم « الحمصي » رائيته[11] التي تقع في ١٠٩ أبيات سنة ١٨٩٤ وكأنه يعارض قصيدة « دع مجلس الغيد الاوانس » فالروح واحدة في القصيدتين والغاية واحدة والبحر واحد وان اختلفت القافية وتباينت الصور :

دع عنك صهباء الدساكر   والى بيوت الدرس بادر

فلأنت في عصر تفو   د بالمعارف والمآثر

وبعد ان يستعرض الوثبات العلمية عند الغرب استعراضاً شاملا ويبدي دهشته منها واعجابه بها . يخاطب ابن الأمة العربية بقوله :

ذا شأنهم أضحى وأنـ   ـت غدوت تسحب ذيل عاثر

تلهو ببعض خزعبلا   ت والتستر منك ظاهر

تخفي الاسى والله يعـ   ـلم ما أكنته الضمائر

وتقول حكم مقدر   وعليه قد أمسيت صابر

يا أيها المغرور ما   ذا القول الا قول خامر

تعزو الى الاقدار حكـ   ـماً من فعالك كان جائر

والله ليس يريد شر   اً بالانام وليس غادر

هذا الخنوع وذا الخمو   ل وكل جبن فيك خادر

حقاً شهود عدل   نمت عليك بها الظواهر

(١١) مختارات ص ١٧ — ٢٣

إن عن حقوقك نمت فاء   لم لن يكون سواك ساهر
وإذا ظلمت فمـا لظلا   مك غير عزم منك ناصر
بالجهل بتّ لدى الورى   مثلا من الامثال سائر

وبعد أبيات يستنهض فيها الهمم ويذكّر قومه بمآثر الاجداد ، يرقب شاعر الفجر من نافذة هذين البيتين :

فمتى أرى الوطن المقد   ى عن محيـا الفضل سافر
ومتى توافي بالأمـا   ني لي بواكـير البشائر

وقد ذكر في نهاية القصيدة الحماسية « السلطان عبد الحميد » بالخير أملا يتيح للرقيب العثماني فرصة لمنع هذه القصيدة المشعة في ظلام تلك الفترة :

ومليكنا عبـد الحميـ   ـد لكم معين بل مظاهر
ملك اليـه تنتـهي   كل المحامـد والمآثر
ملك لـديه كل ذي   حزم وعزم بات صاغر
لم تلق إلا حـامداً   منّا أياديه وشاكر ..

ومن الطريف أن اذكر ان البيت الثالث من هـذه الأبيات لا يخلو في باطنه من التهكم اللاذع على طاغية قصر يلدز . ولذا نقد كتب المرحوم « عبدالله مراش » الى صديقه صاحب هذه القصيدة يقول : « قد أحسنت غـاية الاحسان بهذا البيت ، فهو أقصى الذم لهذا الطاغية »[2] .

وبالرغم من تأثر « قسطاكي الحمصي » بالثقافة الفرنسية ، فان احساسه القومي العربي قد طغى على كل الاعتبارات الاخرى . ولذا فقد احتدم وألقم بعض المتفرنسين اللبنانيين حجراً عندما قام نفر منهم سنة ١٩٢٠ يدعون الحكومة

(٢) مختارات حاشية ص ٢٣

اللبنانية الى أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في دوائرها وذلك بقصيدتـه المجلجلة «البدوية»(١٣) التي تغنى بها كثير من طلاب المدارس في «حلب». قال في معرض الثناء على لغة العرب :

حروفها لمعـان لا تطاولها ... في حسنها بنت يونان ورومان
ألفاظها درر وتركيبها سور ... آياتها غرر ، في كل قرآن
غزيرة الفضل لم يجحد محاسنها ... إلا جهول بايجـاز وتبيان
لها الفصاحة تعزى أينا وجدت ... شهودها مثل قس أو كسحبان
وفي البلاغة هل خود تضارعها ... وأصلها صاعد يسمو لقحطان

ثم يخلص من ذلك الى توجيه اللوم الى المتفرنسين من أهل الجبل الأشم ، محذراً اياهم بمن ذادوا عن حياض العربية من أفذاذ اللبنانيين :

يا أهل لبنان ماذا العهد كان بكم ... يا أهل لبنان قد أصممت آذاني
أنكرتم اليوم ناصيفاً(١٤) وأسرته ... نبشتم قبر شدياق(١٥) وبستاني(١٦)
أما سمعتم أبا إسحاق(١٧) ينشدكم ... يا بعض لبنان قد مزقت أكفاني
ثم يا أخا الود لا تغضب لما أثموا ... فليس لبنان ذابل بعض لبنان
وذلك البعض جزء البعض من نفر ... فمـا لحزنك فينا غير غضبان

---

(١٣) مختارات ص ١٠٩ — ١١٢
(١٤) ناصيف اليازجي .
(١٥) احمد فارس الشدياق .
(١٦) بطرس البستاني .
(١٧) ابراهيم اليازجي .
(١٨) مختارات ص ١١٥ — ١١٧

وكانت مهازل المستعمرين تستفز شاعرنا الحر « قسطاكي الحمصي » . فما كاد مندوب فرنسا ينتخب نواب « حلب » بإرادته سنة ١٩٢٤ حتى نظم « الحمصي » قصيدة [١٨] طويلة تفيض بالسخرية والتنديد بهذه المهزلة الاستعمارية . وقد حذر مواطنيه من مغبة الانسياق وراء المستعمرين ، ومما قاله :

نوابنـــا نوائب كلهم   عـــلى لحن منتخبيهم ، قضوا
أن يجعلوا الطاعـة فرضـاً لهم   في كل مشروع كمـــا يعرض
فوطنوا النفس أيا جـيرة الـ   شهبا على مكس غـداً يفرض
وجزية يدفعها عـــن يـد   كلكم المؤمـــن والمعرض
وسوف يعضون عهوداً بهـــا   ركن بنا استقلالكم ينقض
وسوف للتجنيد تدعون كالـ   سودان والبربر لما مضوا
لا فلتــة ترجى ولا فكة   مـــن بعدما يستحكم المقبض
ينهركم من خلفكم أسود   والـــبربري الجلف يستنهض

أما القصائد التي عربها نظماً عن الفرنسية فلا تخلو من رقـــة وعذوبة كقصائد « آية الله الكبرى » للشاعر الفرنسي « جان رامو »، والزوجان في الشيخوخة » لقرينة الأديب الفرنسي « أدمون روستان »، وقصيدة « جناية حلم » للشاعر الانكليزي « بيرون » ...

وقد أحسن الشاعر صنعاً عندما ابتعد عن الفخر الذاتي وما يكتنفه من مبالغات . ولكن أديبة سورية نشرت في جريدة « الاخاء » السورية سنة ١٩١٠ مقالاً تحت عنوان « حملة الأقلام في بر الشام » بإمضاء « ايزابيل » عاتبت فيه « قسطاكي الحمصي » بقولها : أما قسطاكي الحمصي فقد هجع وقاطع بعد (الضياء)، أي بعد أن انطوت مجلة « الضياء مع صاحبها » الشيخ ابراهيم اليازجي » . فأجابها

« الحمصي » بقصيدة لا تخلو من الفخر بنفسه ومواهبه ، ختمها باعتذار طريف ورد بقوله :

* * *

وما الفخر شأني غير انك رمته وليس لما تقضي المليحة دافع

وبعد ، فاذا تردد البعض في اعتبار « الحمصي » من المجددين بالمعنى الدقيق ، فلا يتردد منصف في اعتباره من الممهدين المخلصين للتجديد المعقول . فقد مهد شاعرنا للتجديد في الأدب في اواخر فترة مظلمة تحجرت فيها القرائح وتفاقم فيها خطر الشعوذات الأدبية المزرية . فمن الانصاف ان نجله ونذكر فضله .

مع التيارات الفكرية

الرجل العجوز الذي يرسم الريح

ترجمة محمود دوله

فلورنسه - ايطاليا

بعد ثماني سنوات من البحث في انحاء كثيرة من العالم تم جمع أعمال الرسام « كارلو كارارا » ، في ثلاث مجلدات ضخمة تعتبر المرجع الوحيد لمغامرات الرسام الطويلة في دنيا الفن والحياة ، فيما بين القرنين .

كتبت احدى صحف ميلانو في شهر أيار ١٨٩٥ :

« أيار شهر الورود ، ودود القز ، شهر العذارى والعشاق ، شهر اكثر حلاوة من باقي شهور السنة ، يصبح لسوء الحظ شهر الانتخابات النيابية حيث يفتح السوق الكبير الذي تعرض فيه الدعايات الانتخابية . »

(١) عن مجلة « ايبوكا Epoca » الايطالية .

آنذاك ، دبت الفوضى ، وراجت الشائعات ، وبلاط البلدية يحتشد بالعساكر المشاة ، والخيالة يطوفون في شوارع المدينة ليل نهار . وعن طريق المسارح كان يصم الفوضويون باليد السوداء على لوحات الدعايات الانتخابية ، وخاصة فوق شعار الملك . والمدينة ببيوتها الشعبية الفقيرة ، وممراتها المظلمة ، وفنادقها من الدرجة الدنيا ، وخماراتها التي تفور فيها رغوة الفقر والتعاسة ، وذاك مطعم « غواست » الاكثر تميزاً عن غيره من المطاعم لفقر وبؤس رواده ، اذ كانت تؤمه مجموعة من الحرفيين لتناول الطعام في منتصف النهار ، وليعودوا الى اعمالهم بعد ذلك بنصف ساعة .

أناس شرفاء ، كان أصغرهم سناً يبدو عليه الأدب بما يدل على أنه من عائلة طيبة .

ذاك الفتى كان يدعى « كارلو كارارا » يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ؛ عينان عميقتان براقتان ، وابنة صاحب المطعم تسرح شعرها ، دائماً في منتصف النهار حين تدق أجراس الكنائس ومن ثم تحمل اليه والى باقي الرواد الحساء الساخنة .

ذات مرة ، بينما كانت الفتاة تساعد والدتها في تنظيف الصحون قالت لها :

« انه ليس كالآخرين يا أماه ، انما هو فنان » .

« كارلو كارارا » كان فتى غريب الطباع . ولد في بلدة « Quargnento » في عام ١٨٨١ . جده كان اقطاعياً وثرياً جداً ، فرط في كل املاكه تاركاً وارثه في كارثة .

أما والده فكان يعمل حذاء .

في أمسية شتوية سقط « كارلو » في مياه احدى القنوات المتجمدة ، حين كان يلعب مع الاطفال ، اصيب اثرها بذات الرئة ، لازم

اثناءها الفراش مدة شهرين ، ومنذ ذاك الحين عكف على الرسم ، وهو لم يتعد السادسة من عمره ، اذ بدأه كتسلية ، ومن ثم استمر في ممارسته كحاجة ملحة عميقة الاحساس ، شفي من مرضه والاحساس بالحاجة للرسم بقي مستمراً .

وهكذا بدأ ابن الحذاء بقضاء الساعات أمام كنائس البلدة مصوراً التماثيل والاعمدة .

وذات يوم على سبيل المزاح ، قال له أحدهم انه قد يجد في أليساندريا من الموضوعات ماهو اجمل من هنا . فهناك كنائس اخرى ونصب تذكارية اخرى .

الا أن « كارلو » شكره ومضى سائراً اليها على قدميه مسافة اربعة وعشرين كيلو متراً عاد بعدها في الظلام ، عندما كانت والدته تبكي خوفاً عليه .

أما والده فقد طلب منه أن يعرض عليه رسومه ، فنظر اليها مندهشاً من رسوم طفل لم يعلمه احد البتة ، دون توبيخ .

وهكذا بدأ الرسام « كارلو كارا » ، مغامراته .

ففي صباح يوم قارس حيا الوالد ابنه مودعاً اياه الى ابن عم له كان يعمل كمهندس في مدينة اخرى قائلا له :

– يابني .. في جيبي ثمانية عشر ليرا . خذها ، ستفيدك !!

فأجابه الفتى :

– وأنت يا أبت ، من أين ستأتي بثمن اللفائف ؟!

أطرق الوالد قليلا ثم قال له : اترك ليرتين فقط .

قدمه عمه الى حرفي عجوز ، كان يعمل على تزيين القصور وفي المساء وجد ابن المزين الفتى الظالم ، الطريقة التي استطاع بها اخذ ليرات « كارلو » الخمس التي تقاضاها عن عمله . فأمضى الفتى ليلته الأولى خارج البيت في غم حالك السواد ،

وفي الصباح رآه نجار، فواساه واصطحبه الى بيته، وقدم له طعاماً، وأفهمه بأن الحياة انما هي شر وخير، ألم وبهجة، كالشمس والمطر في السماء.

خلال عمله انتسب «كارلو» الى مدرسة ليلية لتعليم الرسم حيث تعلمه بسرعة، ونال الجائزة الأولى في المسابقة المدرسية لنهاية العام. ثم تابع العمل عند متعهد آخر، اذ كان المتعهد فاجراً وصارماً، وكثيراً ما كان يصفعه حتى وجد في الورشة من يرسله الى متعهد آخر في ميلانو.

كان العمل قاسياً والنواحي الفنية فيه قليلة، مع القيام بجهد كبير، مما زاد في قلقه. فكان يسير في الشارع قاذفاً بالفرشاة حيناً وبالالوان حيناً آخر، جاراً حذاءه العريض المحروق من الكلس. الا ان الأمل في لقيا ابنة صاحب المطعم، وهي تحمل اليه الحساء الساخنة، كان يخفف من آلامه.

كان يوم الأحد بالنسبة له سلواه العظمى لتمكنه من رؤية تلك التحف والآثار الكثيرة. فهناك:

صالة الفن الحديث، وصالة كرويبكي، والمتاحف، والنصب التذكارية الموزعة هنا وهناك.

وتعود اليدان المتعبتان الى الرسم، وحالما استقر في ميلانو انتسب الى مدرسة ليلية لتصليح الديكور في أكاديميـــة «بريرا»، وفيها أحرز في شهور قليلة من التقدم ما كفل له تعهد العمل في أحد القصور فور بنائه. آنذاك «لم يكن قد جاوز العشرين عاماً..» كان يروي ذلك والده الى أصحابه في البلدة بنوع من الفخر.

ولكن ماجدوى العلا، بدون حب، وقد سمع أخبار ابنة «غواست» وهي بين أحضان أحد عمال المطبعة ؟؟.

حينئذ عكف على قراءة « آلام الفتى فرتر » مجتراً فيه آلامه . كان أثناءها يعيش مع صديق حميم له في بيت وضيع ، يقومان فيه باعداد الطعام بدلاً من الذهاب الى المطعم بغية التوفير . وبعد فترة قصيرة تزوجت إبنة صاحب المطعم من خادم ، فأدرك بعدها « كارلو » أن الموت شيء جدي لم يعد يتمناه ، وخاصة في ذلك اليوم الذي رأى فيه الرجل الذي كان يقذف الجنود بالحجارة من على سطح دار يسقط صريعاً إثر طلقة من بندقية قائد للجنود فرفع « كارلو » قبعته وبدأ بالبكاء متسائلا : لم القتل ؟! . كانت الحالة مريعة جداً في تلك الأيام . إذ كان يدور الحديث عن الثورة المتوقعة ، والناس في « سان سمبليشانو » خربوا حتى طرق عربات الخيل لبناء الحواجز .

وانغمس « كارلو » في السياسة وعاشها دون أن يفهمها . كان يمضي الساعات مع الملحدين ، وعندما يعود الى البيت كان يردد الصلوات التي علمه إياها والده .

جاء العام الأخير من القرن ، والاستعدادات قائمة على قدم وساق ، لإقامة « المعرض العالمي » ، إذ يتطلع آلاف المتنفعين في كل مدن أوروبا الى باريس كفرصة فريدة من أجل الكسب ، فاقترح عليه صديقه :

« لنتنا نحاول ، لعلّنا نجد عملاً » . وأجابه « مارلو » موافقاً ومرحباً بالمغامرة وهو مستعد لكل عمل .

وجد الشابان عملاً بعد ساعات من وصولهما الى باريس ، وبعد إسبوع ، عُرضت على « كارلو » أعمال كثيرة لتصميم أعمدة صالات عرض السيارات .

كان مايهم الفتى القادم من إيطاليا ، قاعات الفن أكثر من اي مكان

آخر. واثناء ذلك استوعى انتباه عدد من الفنانين الفرنسيين منهم « بيزانو » ورسامون آخرون ومجلة « La plume » التي كانت تهتم بالرسامين الناشئين.

كانت باريس آنذاك في حالة غليان ، فبينما كان كارلو يتردد على اجتماعات « كافاللوتي » أصبح يتردد على اجتماعات « جين جاورز » مما جعله يشعر بالتعطش الى العدالة والرغبة في قلب الكون ، وخلقه من جديد.

علق كارارا ابنة صاحب الفندق ، فخانته مع جنرال في الجيش وعاد الى آلامه لفترة.

جاء الصيف وكارارا لايزال يملك مئات الفرنكات ، فتوجه الى لندن حيث تعرف فيها على اتباع مدرسة «رافاييل» ، الاأنه لم يستسيغهم ، في حين أعجبه « كونستابليه ». وكان كثيراً مايمضي لياليه في كهف للفوضويين في احدى حانات حي « سوهو » وكان يتردد على الكهف نفسه « ر كيوني » الذي قذف قنبلة على البرلمان الانكليزي.

كانت تلك الليالي حارة بحضور « بلاتون » و « باكونين » و « توماس مور » و « فوريه » وآخرين يطرقون في أحاديثهم شتى المواضيع.

حدث مرة ان اجتمع الرفاق ذات ليلة وأتوا على ذكر حادث اغتيال الملك « أومبيرتو الأول » في التاسع والعشرين من تموز « ١٩٠٠ » على يد الفوضوي « بريشي » في بلدة « مونزا » ، فكان هذا الحادث بالنسبة للمقيمين الايطاليين في لندن ، عملاً ساراً ، اما بالنسبة لكارارا فقد كان خيانة ، اذ أطلق صيحته : « حياة الانسان مقدسة حتى ولو كانت حياة ملك » . وكأنه بقوله هذا قد دمر الكون مما أدى الى خصامه مع احد الفوضويين المعارضين ، الا انهما عادا للصلح بعد قليل وتسامحا.

رسم « كارارا » أثناء ذلك وجه الملك « أومبيرتو الأول » . وقدم له أحد التجار إطار الصورة وعرضها للبيع عن طريق المزاد ، فدُفع فيها مبلغ باهظ الثمن أسرفه في جلسة فوضوية في ليلة واحدة .

عاد بعدها الى ايطاليا حيث وُلد بليرات زهيدة دون التفكير فيما حدث ورسم أولى لوحاته الحقيقية ، وكان اولئك الذين ينظرون اليها ، يقولون : انه « أومبيرتو الأول » .

وبعد عشر سنوات كانوا يقولون : انه الملك « أومبيرتو الأول » وقد رسم بشكل يشبه لوحة « كارارا » .

وبعد عشرين عاماً اصبحوا يقولون : انها لوحة « كارارا » اذ كانت أولى ابداعاته الكبرى . وكانت الثانية « طبيعة صامتة » ، اما الثالثة فكانت « وجه والده » .

عمل بعدها كمصمماً للمراوح الهوائية ، ثم عمل في اعداد رسوم لبعض الفوضويين .

ويأتي عام ١٩٠٤ ، العام الذي دبت فيه الفوضى بشكل كبير ، ففي احد الأيام ، وفي احد شوارع « Quargnento » — مسقط رأسه — احاطت عساكر الفرسان بحوالي الف فوضوي ، كانوا يحملون رفيقهم « كاللي » — الذي قتلته الشرطة اثناء مشاجرة جرت بينها — الى مثواه الأخير .

وخلّف المشهد في نفس كارارا اثراً عميقاً ، فرسمه في لوحة اسماها « مشيّعي الفوضوي كاللي » التي كان ينظر اليها اصحابه بدهشة كبيرة دون ان يتوقع احدهم بأن هذه اللوحة سيتناولها النقاد في انحاء كثيرة من العالم كذروة اعمال كارارا .

ومن حسن الحظ ان اعيد تكوين الجمعية التعاونية للرسامين والنحاتين، فعينوه مديراً لها . وحين كان يأتي احد لزيارته كان يفتش عنه عند شجرة التين المجاورة لبناء الجمعية . اذ كان يجلس تحتها طوال ايام الصيف ، وعمره آنذاك الثالثة والعشرين عاماً .

اصبح بعد ذلك يرسم قليلاً ، ويدرس كثيراً . وعاد الى « بريرا » بعد بعد ان زوده عمه بمساعدة شهرية .

لكن الخوف عاوده من جديد في الأكاديمية . وبدأ يتابع دروس «قيصر تاللوني » الا انه لم يفد منها كثيراً ، فالتفت عنها يتسكع في الشوارع ويرتاد المقاهي ، يتحدث مع نفسه ، يحلم وهو يقظ ، يقاتل وهو خالس بشكل لم يكن يستطيع تفاديه .

أتى عام ١٩٠٩ ، وفي شهر شباط بالذات صدر بيان « الفوتوريزمو » ، أي المستقبلية — ان صح التعبير — الحركة الفنية الجديدة ، موقعاً من « مارينتي » و « كارلو كارارا » و « بوتشوني » و « روسولي » وفنانين آخرين ، مفجراً قنبلة دوت في ارجاء الثقافة الايطالية ، اذ بدأت مسارح ايطاليا تحيي ليالي «مستقبلية» لاتنسى . وكانت تحدث المشاجرات العامة بشكل مستمر فيتدخل البوليس فيها ويقع الجرحى .

وفي اقل من عامين بعد صدور « البيان » تكشف الحركة القناع عن نفسها وتبدأ بمجابهة صريحة وتستعد لخوض الاختبار الأوروبي في « المعرض العالمي » في باريس طبعاً . قام اثناءها « كارارا » و « بوتشوني » و «روسولي» بعرض لوحاتهم في صالة احد الشباب ، وقد عرض فيها « كارارا » عشر لوحات

دفعة واحدة ، منها لوحة « مشيعي الفوضوي كاللي » حيث كان اسمه يتصدر الصفحات الأولى للجرائد .

كل ذلك تم خلال عشر سنوات من بدئه العمل كمصمماً لأعمدة صالات العرض للسيارات في المعرض العالمي .

كان « كارارا » يعتبر استمراره في دعم هذه الحركة إنما هو التزام ، في حين أن بعض الرسامين المعروفين بدأوا في البحث عن اتجاهات أخرى بعد ان انتهت الفترة التجريبية للحركة « المستقبلية » ، وحتى بعد انتهاء دورها .

وتقابل بعدها في باريس مع « بيكاسو » و « موديلياني » ورسامين آخرين . وناقش « ماكس جيب » وغيره مشكلة الفن الخطيرة .

ففي الوقت الذي كان فيه الجو متلبداً بغيوم الفوضى ، كانت أخطار الحرب تزداد بروزاً ، والرجال اليقظون كانوا ينذرون بها باحساساتهم الفطرية .

وقع الانفجار حين كان « كارارا » في ايطاليا مع صاحبيه « كوريدوني » و « قيصر باتيستي » ، قانعاً في ما هو عليه من حال كجندي بسيط في فرقة المشاة .

وحدث ان بعث به أحد القادة الى المستشفى بحجة انه مصاب بمرض عصبي يقربه من الجنون . ومن حسن الحظ أن كان الطبيب الذي يدير المستشفى رجلاً طيب القلب ، فأدرك أن ذاك الشاب بحاجة الى فترة استشفاء قصيرة . فعني به ووفر له كل ما كان يحتاجه من أدوات للرسم . وكانت المعالجة ناجعة .

شفي الجندي « كارارا » ونال اجازة نقاهة ، عاد أثناءها الى ميلانو ، والى دراسته ؛ فأعجب بفنه « باولو أو تشيلو » وبمزاياه الجديدة المنفتحة على أعماق الحقيقة .

وسحرته كلمة الفيلسوف « فيكو » :

« الشاعر الحقيقي هو فيلسوف الحياة الطبيعية » .

ويبدأ النقاد الكتابة عن بداية عهد « فلسفة الطبيعة » الجديد . وفيها بدأت في الحقيقة دراسات الفنان التي استمر فيها دون تخوف أو اقتصار على ناحية معينة الى آخر أيام نصف القرن تقريباً .

أما الآن وقد انتهى أحد أصدقائه القدامى « برونو كروستي » من جمع أعماله في ثلاث مجلدات، كل واحد منها يحوي «٦٠٠» صفحة، جامعاً فيها «١٤٠٠» لوحة موزعة في مجموعات خاصة ومتاحف عامة في أنحاء كثيرة من العـــالم . بعد هذا يبدو ان انتاجه الذي دخل به تاريخ الفن الحديث محتلا به مكانة بين أوائل الفنانين دون منازع ، الا ان ماهو جدير بالتقدير هو كفاحه المرير الذي شيد به مجده الشامخ يوماً بعد يوم وحجرة فوق اخرى بصبر وأناة .

والسبب في هذا يعود الى رسم بسيط استطاع به دخول احد المقاهي الذي يكلف اليوم دخوله ثمن سيارة فاخرة !!

ونجاحه الكبير انما صنعه حبه للفن ، وخبرته فيه ، ولأن نهر « كارارا » المتدفق نزل الوادي من الجبل بقوة الطبيعة العذراء الى أن وصل الى مستوى يتمدد فيه مجده بطمأنينة وصمت تامين .

توفي في مدينة ميلانو عام ١٩٦٦ .

شروح

— Ouargnento ص ٢ بلدة في منطقة « Alessandria » في الشمال الغربي من ايطاليا .

— Brera — ص ٦ : «بريرا» بلاط في ميلانو وهو مركز أكاديمية الفنون الجميلة ، ومركز المكتبة الوطنية .

— Cavallotti — ص٨ : كافالوتي : شاعر وكاتب مسرحي ومحامي ورجل سياسة ، ايطالي من أتباع غاريبالدي .

— Umberto - i — ص٨ : «أومبيرتو الأول» : ملك ولاية سافويا الايطالية .

— Futurismo — ص ١١ : المستقبلية : مذهب الجمال وهو يدعو الى : العمل على تقليل كل ما أوجده الماضي في داخلنا من خبرات منسية وبعيدة والعمل على الاحساس بالحياة كما لو أنها بدأت اليوم فقط ، وهو بالنسبة لمؤسسة « مارينتي » : « الالتفات عن الاساليب المطروقة » ، أهداف هذه الحركة وردت في البيان الذي صدر في ٢٠ شباط ١٩٠٩ .

١ — البيان الخاص بالرسم صدر في تورينو بايطاليا ١٩١٠ .

٢ — البيان الخاص بالحفر صدر في باريس ١٩١٢ .

٣ — البيان الخاص بالهندسة المعمارية صدر في ١٩١٤ .

وقد كان أثر الحركة واضحاً في الناحية الادبية والفنية .

حول الوضع الحالي للغة العربيّة

بسام طيبي

١ – طرح المسألة :

في مقالة تحمل طابعاً عاماً جداً ،لا أثر فيها للتحليل، يتطوق السيد سليمان ثنيان الى موضوع اللغة العربية في أحوالها الحالية ،وينهي مقالته قائلا : « أيها العربي الى متى نغط في سباتنا العميق ؟ الى متى نصم الآذان دون صراخ الويل الداعي الى النجدة ، القائل : أنا لغتك ، أنا حياتك ، أنا أنت ، أنائي خطر ، اين انت ؟ انقذني من التزحلق في الهاوية ، خذ بيدي . متى نسمع هذا النداء ونلبي هذا الصوت الشجي الحزين ؟! متى نعي مسؤوليتنا وندرك الخطر

(١) بالرغم من عدم موافقة « المعرفة » على كل ما في مقال السيد طيبي من أحكام، وبالرغم من اعتقادها أن طرح الموضوع بهذه الصيغة هو طرح جانبي ، فنحن نقدمه للقارىء العربي بوصفه وجهة نظر تستحق المناقشة .

وبالمناسبة يحسن الرجوع الى مانشرته المعرفة حول هذا الموضوع في أعدادها ٤٧ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ .

الجسم ؟» (١). اذا غضضنا النظر عن جو الصراخ الهستيري، كما يظهر في المقطع المستشهد به، بل وفي المقالة بأجمعها، فاننا سنجد ان السيد ثنيان قد طرح موضوعاً حساساً جداً للنقاش، هو حسب تعبيره «كيف نحول اللغة العربية الى لغة عالمية» (٢). فنحن نتحدث دائماً عن رغبتنا في النمو والتقدم، ولكن هذه الرغبة تبقى رغبة، رغم أنها في الواقع دعوة الى الثورة، أو هكذا يجب ان تكون. فالنمو والتقدم لا يتحققان الا عن طريق ثوري علمي، لكن معظمنا، وحتى الاوساط التقدمية، لايدخل في تفصيلات الموضوع، أي كيف نحقق - بالتفصيل - هذا النمو وهذا التقدم حتى نقضي على اوضاعنا الحالية المذلة، التي يعبر عنها التخلف والهزيمة والخضوع للامبريالية، مباشراً كان او غير مباشر.

ان طرح موضوع اللغة العربية، ووسائل تجديدها للنقاش، امر ضروري جداً، خاصة بعد ان كانت اللغة العربية حكراً للغويين العرب غير المطلعين على العلوم الحديثة، حيث ان ثقافتهم لاتتعدى دراسة المصادر الفقهية القديمة. فكان أمر تجديد اللغة العربية على أيدي اللغويين العرب ذوي النزعة المحافظة يكاد يكون مستحيلا. انني اعتقد ان تجديد اللغة العربية وجعلها لغة عالمية علمية يقع على عاتق العلماء العرب الشباب، خاصة اولئك الذين تلقوا دراساتهم العليا واختصاصاتهم في الخارج، فكان لهم الاطلاع الواسع على المصطلحات العلمية للغات العالمية المختلفة.

اننا نحن العلماء العرب الذين تلقينا ثقافتنا في الخارج قد لانجيد العربية مثل اللغويين العرب، لكن الامر ليس امر من يجيد قواعد اللغة العربية المعقدة بشكل افضل، وانما أمر اغناء اللغة العربية بالمصطلحات العلمية حتى تكون في لغتنا العربية ايضا مصطلحات العلوم الانسانية والطبيعية والتكنولوجية.

لقد تطرقت سابقاً وبشكل جانبي الى امر احداث تجديد في اللغة العربية، وذلك في نطاق تطرقي الى قضايا ترجمة الاعمال العلمية الأجنبية الى اللغة العربية (٣). أما في

---

(١) سليمان ثنيان: المجمع اللغوي العربي - في: الشباب العربي (القاهرة) عدد ٩٨ بتاريخ ٢١ اكتوبر ١٩٦٨، صفحة ٦

(٢) المصدر ذاته.

(٣) انظر: بسام طيبي: ملاحظات حول مسائل الترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية - في مجلة: دراسات عربية - عدد ١١ - سنة ٤ - أيلول ١٩٦٨ - صفحة =

هذا البحث فانني سأتطرق الى هـــذا الموضوع بشكل منهجي . وكان قد قام كل من المفكرين العربيين الكبيرين سلامة موسى وساطع الحصري بالتطرق الى الموضوع نفسه بشكل منهجي ، ووصلا الى نتائج تكاد تكون واحدة ، رغم اختلاف اتجاهيهما السياسي. فسلامة موسى مفكر اشتراكي ، بينـما لايزيد ساطع الحصري ، سياسياً ، عن كونه مفكراً وطنياً .

وسوف أبني هذا البحث بالدرجة الاولى على مؤلفات المفكرين المذكورين الخاصة بهذا الصدد ، وسوف تظهر مواقفي وأرائي من خلال تحليلاتي ومناقشاتي لما كتبه كل من سلامة موسى وساطع الحصري حول مسألة تجديد اللغة العربية المعاصرة لجعلها لغة علمية عالمية .

وأحب ان أشير الى أن ما يفصل بين كاتب هـــذا البحث وبين من تطرقوا الى موضوع اللغة العربية سابقاً ، باستثناء سلامة موسى وساطع الحصري ، هو اعتقادي بان دغدغة مشاعر الانسان العربي الحديث ، عن طريق الاشارة الى ان اللغة العربية كانت سابقا اكثر اللغات عراقة وعلمية ، ليس الا عملاً وجعياً . فكون لغة ابن خلدون ولغة ابن رشد في مؤلفاتهما الخالدة ، ومؤلفات غيرهما من المفكرين العرب القدامى ، الذين سطر التاريخ اسمائهم باحرف ذهبية ، وكون لغة اجدادي العظماء لغة علمية لا يعني ان لغتي العربية المعاصرة هي لغة علمية ايضا . ان اللغة العربية المعاصرة لغة فقيرة جداً ، من الناحية العلمية والاصطلاحية (الترمينولوجية) ، لذلك فان الرقاد على أثار الاجداد ليس سوى اهانة للاجداد ، لأننـــا حالياً لسنا في مستوى اجدادنا ونحن نتطاول على الأجداد العظماء ، ان نحن قارنا انفسنا بهم . ولم يقل جمال الدين الافغاني من قبيل الصدفة في نطاق لومه الحاد للعرب المعاصرين « نعم اولئك آباؤنا واجدادنا ، قد جاد الزمان بهم ، فجاءوا ، ولكن واسوأتاه ، وامعرتاه ، واخجلتاه !؟ اذا م سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم ، وما اورثوه لنا ، واستخلفونا عليه » (٢) على أولئك الذين يرددون نغمة عراقة اللغة

=٨٥-٩٠ وبمزيد من التفصيلات في : بسام طيبي : حول حركة الترجمة للاعمال العلمية والادبية من اللغات الاوروبية الى العربية ودورها في التاريخ العربي الحديث — في : مجلة العلوم — عدد نوفمبر ١٩٦٨ —

(٢) جمال الدين الافغاني : الاعمال الكاملة في مجلد — تقديم وتحقيق محمد عمارة القاهرة ١٩٦٨ — دار الكاتب العربي — صفحة ٢٠٤ .

العربية القديمة دون ان يقولوا لنا كيف نجعل اللغة العربية الحديثة لغة علمية ، مثلما كانت لغة أجدادنا في زمنها ، على اولئك ان يتفهموا كلمات جمال الدين الافغاني المستشهد بها اعلاه، وعندما يستوعبونها ويغلب عليهم الحياء ، ليتوقفوا بعدها عن ترديد نغمتهم (١)

٢ – آراء سلامة موسى حول تجديد اللغة العربية :

اني اعتبر سلامة موسى من اكثر المفكرين العرب جذرية في التاريخ العربي الحديث بأكمله ، ولقد أظهرت هذه الجذرية في دراسة آنفة لي، حين تطرقت الى محاولات سلامة موسى من اجل ايجاد فكر عربي جديد يحضر لثقافة عربية جديدة (٢) . وتجديد اللغة العربية برأي سلامة موسى هو جزء من التجديد الشامل على المستويات الاقتصادية – الاجتماعية – السياسية للمجتمعات العربية المتأخرة . يقول سلامة موسى لدى تعرضه الى هذه المسألة: « علينا ... الآن ان نوجد رابطة الثقافة ... ولن يكون ذلك بالجري على آثار السلف وكد الأذهان في تركيب العبارات ، كما كان يركبها الجاحظ وابن زيدون ، ولن يكون ذلك ايضاً بتمجيد الآباء والتغني بالاحساب والفخر بالآثار التي خلفوها لنا » (٣). في هذا الاستشهاد نجد صياغة مركزة جداً تحتوي على المنطلق الفكري لجميع نشاطات سلامة موسى التأليفية والعملية. في هذا الاستشهاد يحدد سلامة علاقة اللغة بالثقافة من جهة ، ومن جهة اخرى فهو يؤكد على انه ليس التجديد اللغوي فحسب بل التجديد الثقافي بأجمعه لا يمكن ان يقوم على أساس تمجيد ما تركه الاجداد ، والنوم العميق على

---

(١) هذه النغمة تجدها في الكتابات التالية : عبد الحق فاضل : العرب أول الفلكيين – في الآداب – يوليو ١٩٦٨ – عدد ٧ – سنة ١٦ – صفحة ١٤ – ١٦. ايضا بشكل مضاعف لدى : محي الدين اسماعيل : مع العربية في عراقتها – في : الاداب – اغسطس ١٩٦٨ – عدد ٨ – سنة ١٦ – صفحة ٢٥ – ٢٧ . وهذه امثلة فقط من النغمة المذكورة .

(٢) انظر : بسام طيبي : الثقافة العربية المعاصرة بين التقدمية والرجعية . في : الأداب – العدد العاشر – السنة ١٦ – اكتوبر ١٩٦٨ – صفحة ٢٧ – ٣١ وصفحة ٤٢ – ٤٧ .

(٣) سلامة موسى : المختارات – بيروت ١٩٦٣ – الطبعة الثانية – مكتبة المعارف – صفحة ١٣٠ .

التراث. تجديد اللغة يعني التجديد الثقافي الشامل القائم على التطلع الى المستقبل. ويتحدث سلامة عن سبب رفضه للنواح والعويل على تراث الاجداد فيقول : « فليس يذكر الموتى إلا الميت الذي خمد ذهنه وماتت قريحته . وليس ينبش القبور لكي يلبس أكفان الموتى إلا الفقير الذي ونت همته وفترت عزيمته عن كفاية نفسه » (١) .

الثقافة الجديدة العلمانية هي اذن ضرورة اساسية من أجل تطور المجتمعات العربية ونموها ؛ فحسب رأي سلامة موسى « كل تحرك اجتماعي يحتاج الى تحرك ثقافي، وليس هناك غير الامم الزراعية التي تستطيع أن تعيش على ثقافة راكـــدة لا تتحرك ولا تتباين ولا تتنوع ، لأن المجتمع المتحرك يحتاج الى ثقافة متحركة متباينة متنوعة . ومن هنـــا ضرورة الانقلاب الثقافي لايجاد انقلاب في الحضارة » (٢) ويؤكد سلامة موسى ان الوصول للحضارة العصرية على أسس الثقافة التقليدية أمر في قيد المستحيل فـ « ليس من المستطاع ان تأخذ امة بالحضارة العصرية اذا كانت تعيش على ثقافة قديمة لم تستطع في تاريخها الماضي الا ان تثمر الحضارة الزراعية فقط » (٣) .

بعد تطوير هذه المنطلقات ينتقل سلامة موسى الى تحليل علاقة اللغة بالثقافة في نطاق دعوته للتجديد الثقافي العربي الشامل . يقول سلامة موسى « فقاعدة الثقافة هي اللغة، ولا يمكن بتاتاً إيجاد ثقافة راقية بلغة منحطة ولا ثقافة متحركة بلغة جامدة ، لأن تحرك الثقافة ورقيها يجب أن نستتبعا رقي اللغة وتحركها ، أي تطور ألفاظها القديمة وتلبسها بالمعاني الجديدة ، أو اصطناع الفاظ جديدة أجنبية أو وطنية » (٤) هذه العلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة جعلت سلامة موسى يعطي لتطور اللغة العربية الى لغة علمية اهتماماً خاصاً ، وهو يؤكد أننا « مها كتبنا فاننا لن نبالغ في قيمة اللغة للأمة ، نعني اللغة العصرية التي تقبل التطور وتقدر على الاستيعاب للفنون والعلوم واصطناع الالفـــاظ الجديدة ، اللغة التي لا يجد فيها المفكر حرجاً يضيق عليه تفكيره ويضلله باتخاذ ألفاظ لا تؤدي أغراضه ، او تمنعه من ان يتناول بعض الموضوعات العلمية او الفلسفية لأنه

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) سلامة موسى : ماهي النهضة ؟ - بيروت ١٩٦٢ - مكتبة المعـــارف - صفحة ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، الصفحة ١٢٤ .

(٤) سلامة موسى : ما هي النهضة؟ - المصدر الآنف الذكر - صفحة ١٢٦ .

يجد عجزاً في اللغة عن اداء معانيها » (٢) . وكل من تلقى ثقافته في بلد متقدم لا بد انه يوافق سلامة موسى على رأيه هذا ، فمن اطلع منا ، نحن العرب ، على العلوم الحديثة، انسانية كانت ام طبيعية ام تكنولوجية ، فانه سوف يجد صعوبات جماً ان يفكر في مواضيع هذه العلوم باللغة العربية . لقد اثبتت الابحاث السوسيولوجية والانتربلوجية منذ ما يزيد عن ربع قرن ان التفكير لايتم إلا بلغة ما ، فاذا كانت لغتنا الام ، هكذا ، قاصرة على ان تجعلنا نفكر بألفاظها ومعانيها في المواضيع العلمية الحديثة فاننا سنجد انفسنا مضطرين ، عن شعور أو عن عدم شعور ، عن رغبة او عن عدم رغبة ، لأن نفكر في اللغة الاجنبية ومعانيها في المواضيع العلمية بحقولها المتنوعة . ان اللغة العربية الحديثة تفتقر بشكل مرعب للترمينولوجيا (علم المصطلحات)العلمية في معظم الفروع .و كون اللغة العربية ، حتى الآن ، محتكرة من قبل اللغويين العرب ، غير المطلعين على العلوم الحديثة بفروعها الثلاث : الانسانية ، الطبيعية ، التكنولوجية ، لهو احد الاسباب الرئيسية في عدم وجود محاولات جماعية جدية من اجل تحديث Modernization اللغة العربية المعاصرة ، لذلك كان نقد سلامة موسى ، في هذا المجال ، مركزاً بشكل حاد على اللغويين العرب ، فهو يكتب عام ١٩٢٧ قائلاً : « تعليم اللغة العربية في مصر لا يزال في ايدي الشيوخ الذين ينقعون ادمغتهم نقعاً في الثقافة العربية،اي في ثقافة القرون المظلمة. فلا رجاء لنا باصلاح التعليم حتى ننزع هؤلاء الشيوخ منه ونسلمه للافندية الذين ساروا شوطا بعيداً في الثقافة الحديثة » (١) .

ان سلامة موسى لا يتعلق بالثقافة الاوروبية تعلقاً أعمى كما اتهمه نقاده ، إن لم نقل اعداؤه ، من رؤوس الرجعية الفكرية . فهو قد اتهم اوربا بالامبريالية ، لكن اكد عدة مرات مواجهة الامبريالية لا تتم إلا بأسلحة الثقافة الجديدة العلمانية .فمجتمعنا بأحواله المتخلفة ،وثقافتنا بركودها وتقاليديتها ،وأوضاعنا بشكلها المذل ، لن تجعلنا قادرين على مقاومة الامبريالية . علينا اذن ان نأخذ من الاوربيين العلم والثقافة الجديدة ، ونترك القيم البرجوازية الامبريالية جانباً ونأخذ العلم لوحده ، بينما نحارب الاشياء الرجعية الاخرى .

ينظر سلامة موسى الى اللغات كوسيلة للتفاهم القومي من جهة وللتفاهم الأممي من جهة أخرى . فالى جانب كون اللغة أداة للتفكير على المستوى الفردي ، فهي تستطيع

---

(١) نفس المصدر – صفحة ١٢٧ .

(٢) سلامة موسى ، نقلاً عن : محمود الشرقاوي : سلامة موسى المفكر والانسان – بيروت ١٩٦٥ – دار العلم للملايين – صفحة ١٣٦

إن تكون أيضاً جسراً يربط الشعوب ببعضها الآخر . لهذا يتحسر سلامة موسى على اللغة اللاتينية المنقرضة ، اذ أنه يعتبر اللاتينية لغة دولية تتجاوز الحدود القومية الضيقة . يقول سلامة موسى: «ونحن في أيامنا قد اصطبغت أذهاننا بصبغة عالمية فصرنا ننظر نظرة الرجاء لمنظماتنا الدولية ونفكر في ايجاد لغة عالمية ولذلك لانستطيع إلا الأسف على ضياع اللاتينية أو انحدارها الى زوايا الجامعات والديوره والكنائس » (١) ولكن سلامة موسى رغم ذلك لايقلل من قيمة اللغات القومية ،فهو يعتقد انه حق اللغات القومية قادرة على التفاعل فيما بينها فيشير مثلاً الى تأثير لغة العرب ، آنذاك عندما كانت هذه اللغة لغة علمية تثير الفخر في الناطقين بها ، على اللغات الأخرى . فكم من مصطلح علمي في اللغـات الأوروبية ذو أصل عربي . ولكن سلامة موسى يذكر فضل العرب على أوربا ، ليس من أجل أن يدغدغ على أعصابهم مباركاً نومهم على تراث الاجداد ، هذا النوم العميق، لا ، ان سلامة موسى يذكر ذلك لسبب آخر . فنحن العرب ذوي فضـل على النهضة الاوربية ، فنحن الذين اوصلنا الى اوروبا الفلسفة الاغريقية ونحن نقلنا اليها العلوم الطبيعية التجريبية والطب .. الخ . لكن اوربا اليوم تفوقنا بكثير ، فلماذا نجد ضيراً من الانتفاع بالعلوم الاوروبية الحديثة ؟،وفي نطاق موضوعنا نقول لماذا نجد ضيراً في أخذ المصطلحات العلمية الاوربية وجعلها جزءاً من لغتنا ، تماماً كما أخذ الأوربيون عـدداً ضخماً من الكلمات العربية وجعلوها جزءاً من لغاتهم دون أن يقول أحد ان هذا تهديد للوجود القومي للشعوب الأوربية ؟ . لنستمع مايقوله سلامة موسى في هذا الصدد : « نستطيع أن نذكر من الكلمات العربية التي دخلت أوربا والتي تستعمل الآن في لغاتها عشرة أضعاف ما ذكرنا هنا . وكل هذا يدل على ان الثقافات تتقارض بأخذ بعضها من بعض . وهذا التقارض هو، في النهاية ، تلاقح وإخصاب وزيادة في التفاهم والانسانية . وليس علينا لذلك أي ضرر من الأخذ بالكلمات الأوروبية للمخترعات والمكتشفات الأوروبية »(٢) .

ثم أن المصطلحات العلمية التي كانت نتيجة النهضة العلمية والتكنولوجيا في أوربا لم تعد ملكاً خاصاً لأوربا وانما أصبحت تراثاً علمياً ، لذلك يرفض سلامة موسى ، مثله مثل كل عالم عربي مطلع ، ترجمة المصطلحات العلمية الى العربية ، ويطالب بأخذها في أصلها. وهو يقول: «فأما الكلمات العلمية فكلها من الثقافة البشرية عالمية. فكلمات ميكروب وبكتريا واسفلت واوكسجين وبترول وفيتامين ، وهو مون ودينصور وسيلا كانت

(١) سلامة موسى : ماهي النهضة؟ – المصدر الآنف الذكر – صفحة ٩٨–٩١ .
(٢) سلامة موسى : المصدر السابق – صفحة ١٠٦ .

ودفتريا ونحوها ، تعد عالمية لأن جميع المثقفين يعرفونها بهذه الاسماء ولا يترجمونها الى لغاتهم ، أي أن هذه الكلمات ليست انجليزية او يابانية او صينية أو ألمانية او روسية، وانما هي كلمات علمية إتفق العلميون في جميع الامم المتمدنة على أن يبقوها كما هي وألا يترجموها الى لغاتهم . ويجب ان نقتدي بهم . وهذا هو عكس ما يفعله مجمع اللغة العربية في مصر . فانه يخترع كلمات عربية لهذه الكلمات العلمية كأن العالم كله على وفاق إلا نحن فاننا ننشق عليه ونجعل للعلم لغة غير لغته في جميع الاقطار »(١) .

اننا بحاجة الى الاتصال باللغة العلمية العالمية. فلجميع المصطلحات العلمية والكلمات الشائعة للمخترعات صيغة تستعملها جميع الامم . لكن بعض المتعصبين للغة العربية بشكل مريض ، وهم سبب تأخر هذه اللغة ، يعارضون هذا الأمر . فكلمة « تلفزيون » على سبيل المثال كلمة يستعملها كل عربي دون أن يرى في ذلك ضرراً على كيانه القومي. لكن مجمع اللغة العربية يصر على تسمية التلفزيون بكلمة عربية لايعرفها إلا اليسير من العرب وهي كلمة « مرناة » .وتبلغ الشوفينية باحدهم درجة تجعله يطالب بأن « تنزع اللائحة المكتوب عليها « تلفزيون » والمعلقة على بناية المرناة وتعلق مكانها أخرى مكتوب عليها «مرناة» . يجري ذلك بأمر المجمع اللغوي العربي » (٢) ان السيد ثليان يطالب بعصبية بالغة بأن تعطى لمجمع اللغة العربي ، المتكون من عدد من اللغويين المحافظين الذين لايتابعون تطور العلوم العصرية ، سلطات دكتاتورية لإزالة مايسمى بال « كلمات الاجنبية » من اللغة العربية . وهو يقول هذا لأنه يعتقد ان اخذ الكلمات العلمية بشكلها غير العربي ، أي مثلاً قولنا راديو أو تلفزيون ، ليس إلا تحريفاً . ثم يقول: « إذا لم نتخذ أمراً حاداً ضد هذا ، اذا لم نسر في لغتنا خسوف تصبح لغتنا بعد عشرين سنة مجموعة من الكلمات السطحية القشرية المفككة وخليط غريب من لغات غير متجانسة ، لا تسمن ولا تغني عن جوع .. لا تقل لا ... ان التعريب بالتحريف لهو حكم على اللغة العربية بالاعدام وتسميم لافكار الامة العربية ليس اقل اجراماً من نقل الكلمات الاجنبية كما هي ... بالنقل والتحريف نحكم على لغتنا وعلى انفسنا بالدمار والفناء » (٣) .

انني استشهد اعلاه بهذا المقطع الكامل من السيد ثليان لأرني بالتفصيل حجج أعداء اخذ الترمينولوجيا العلمية العالمية وجعلها جزءاً من لغتنا العربية . ان هذه الحجج لا تعدو عن كونها شوفينية عصبية متطرفة .

---

(١) سلامة موسى : نقلاً عن محمود الشرقاوي : المصدر الآنف الذكر صفحة ١٦٠

(٢) سليمان ثليان : المصدر الآنف الذكر .

(٣) سليمان ثليان : المصدر السابق .

لنأخذ اللغة الالمانية مثلاً التي هي ذات اصل جرماني . فنحن نجد في اللغة الالمانية الحديثة عدداً ضخماً من الكلمات الغربية، اي ذات الاصل غير الجرماني ، مثل الكلمات ذات الاصل العربي او اللاتيني او الأغريقي ، وهي كلمات لا حصر لها في اللغة الالمانية . أضف الى ذلك الكلمات التي اخذها الالمان من الفرنسية المعاصرة والتي تستعمل حتى في اللغة الالمانية وتلفظ بالفرنسية ، كذلك الكلمات الانكليزية خاصة في علم السوسيولوجيا والعلوم الطبيعية والتكنولوجية ، حيث دخلت المصطلحات الانكليزية ، في هذه الحقول العلمية ، الى اللغة الالمانية بشكل كبير جداً . والالمان لا يشعرون بان ذلك يقلل من قيمة لغتهم،فهم يعلمون تماماً ان الاصطلاحات الفلسفية في كل من اللغتين الانكليزية والفرنسية معظمها ذات اصل الماني، اذ ان اللغة الالمانية اغنى لغات العالم في المصطلحات الفلسفية . ولكن عندما جاء هتلر والنازية للحكم وحكمت الفاشية المانيا ، فان القوميين النازيين الالمان امروا بابعاد جميع الكلمات ذات الاصل الغير جرماني من اللغة الالمانية ، وكان هذا سبب لافتقار لا مثيل له عاشته اللغة الالمانية ، وكانت اغنى اللغات الاوروبية في المصطلحات العلمية .

والسيد ثنيان يطالب تماماً بما طالبت به النازية وبما طالب به هتلر . والسيد ثنيان يعيش في المانيا الغربية، وحبذا لو اطلع على التأخر الذي حدث للعلوم في المانيا خلال الفترة النازية ، من جراء خوف العلماء الالمان من استعمال المصطلحات ذات الاصل غير الجرماني، فلم يعد هؤلاء العلماء يجدون اللغة العلمية التي يكتبون بها .

علينا ، اذن ، أن نرفض الدعوات العصبية الشوفينية ، بل والرجعية في الحقيقة ، هذه الدعوات كمثل التي يتقدم بها السيد ثنيان . وسوف نرى في سياق هذا البحث أن سلامة موسى لم يكن لوحده عندما طالب بأخذ الترمينولوجيا العلمية العالمية كما هي عليه وصبهرها في لغتنا العربية .

فساطع الحصري الذي يعتبر في الوطن العربي رائد فكرة القومية العربية وفيلسوفها، طالب بنفس الشيء . ولا اعتقد أن احداً يشك بساطع الحصري فيقول عنه أنه يريد أفناء اللغة العربية او الأمة العربية وما شابه ذلك من هوس المتعصبين الشوفينيين حول اللغة العربية وتجديدها .

٣ – أراء ساطع الحصري حول تجديد اللغة العربية :

كما رأينا اعلاه ، فان منطلق سلامة موسى هو : كيف نجدد الثقافة العربية المعاصرة وكيف نجعلها ثقافة علمية ثورية ديناميكية . ومن هذا المنطلق يتجه سلامة موسى نحو

مطالبته بتجديد اللغة العربية عن طريق الأخذ بالترمينولوجيا العلمية العالمية ، لأن اللغة هي أساس الثقافة ، والثقافة العصرية تحتاج الى لغة عصرية علمية .

اما ساطع الحصري فهو ينطلق من اطار يختلف كلياً عن اطار سلامة موسى . ساطع الحصري،بوصفه مفكراً نظرياً للقومية،ينطلق من علاقة اللغة بالقومية،وليس من علاقة اللغة بالثقافة . الثقافة تهم ساطع الحصري فقط في نطاق نظريته عن القومية ، أي تهمه الثقافة القومية خصوصاً ،وليس الثقافة بشكل عام كما هو الحال عند سلامة موسى .

وتأخذ اللغة مكاناً رئيسياً جداً في نظرية الحصري ، فحسب رأيه تشكل اللغة الى جانب التاريخ أسس القومية ، اما العوامل الاخرى فيشطبها الحصري بكل سهولة في جميع مؤلفاته دون أن يرى ما يمنعه من ذلك . ولسنا هنا بصدد تفنيد نظرية الحصري عن القومية . بل ان ما يهمنا هو أراء الحصري عن تجديد اللغة العربية .

يرى ساطع الحصري ان اللغة ، هي اهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس ... لهذا نجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في الشعور والتفكير وتربط الافراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، وتكون اقوى الروابط التي تربط الافراد بالجماعات (٢٠). وانطلاقاً من هذا المنطلق يتجه الحصري نحو اللغة العربية مطالباً بتجديدها لجعلها لغة حديثة تلعب دورها الاجتماعي في وصل الروابط القومية بين الشعوب العربية . ونحن اذا غضضنا النظر عن افكار الحصري البرجوازية، فاننا سنرى أن الحصري من المفكرين العرب القلائل الذين نادوا بعملية الانفتاح على الروح العصرية وعلى التفكير العلماني . لكن النقص عند الحصري هو أن دعوته لم تتعد الحدود الليبرالية ، ولم تكن هكذا دعوة جذرية ، لعدم كونها ثورية اشتراكية . ورغم أن الحصري من الدعاة الكبار للقومية ، فانه لم يكن قط شوفينياً رغم أنه نشر عن قصد الفكر الشوفيني القومي الالماني بين المثقفين العرب . وساطع الحصري يعالج قضية اللغة القومية العربية بعيداً عن الجو الهيستيري الذي وجدناه عند كاتب قومي مثل السيد ثنيان، فساطع الحصري رغم قوميته متمسك بالعلمية .

---

(٢٠) ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية — بيروت ١٩٦٤ — دار العلم للملايين — طبعة خامسة . انظر ايضاً مناقشة لآراء ساطع الحصري عن اللغة والتربية القومية في المصدر التالي :

الدكتور يوسف خليل يوسف: القومية العربية ودور التربية في تحقيقها — القاهرة ١٩٦٧ — دار الكاتب العربي . خاصة صفحة ٣٤ وما يليها وصفحة ٦٨ وما يليها . وأصل هذا المصدر هو رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .

ان ساطع الحصري يعترف بالحقيقة المرة المؤلمة وهي ان« كل من يتوغل في العلوم الحديثة يشعر بفقر اللغة العربية في الاصطلاحات التي تحتاج إليها تلك العلوم ، على الرغم مما اشتهرت به من الغنى » (٢١) .

ويشرح ساطع الحصري مفهوم الغنى في اللغات فيقول « فالغني في اللغة لا يقاس بعدد الكلمات المسطورة في القواميس ، ولا بكثرة المترادفات المطمورة فيها : فان القواميس لم تكن مجمعاً للكلمات الحية فقط ، بل هي مدفن للكلمات الميتة ايضاً ، ولا سيما القواميس العربية ، فانها مملوءة بالكلمات المهجورة التي فقدت قيمة التداول والاستعمال. فمثل الذين يتفاخرون بكثرة الكلمات المسطورة في القواميس — بدون ان يلاحظوا حيوية تلك الكلمات وفائدتها — كمثل من يتفاخر بسعة بلده ، دون أن يميز بين مساكنها ومدافنها » (٢٢) .

هذه الحقائق التي يستعرضها الحصري تعني بكل وضوح أن أولئك النفر من المثقفين العرب الذين يتنغمون يومياً بكثرة مفردات اللغة العربية ، وبأن هذه المفردات تفوق في عددها حتى مفردات اللغات الأوربية الحديثة ، وأنه في العربية اكثر من خمسين مترادفاً لكلمة « جمل » بينما لا توجد في اللغات الأوربية بأجمعها سوى مفردة واحدة تعني « جمل ». إن الحقائق التي يذكرها الحصري تعني أن هذا النفر من المثقفين يحاول أن يخفي على نفسه وعلى بني قومه أن اللغة العربية ، في وضعها الحالي ، لغة متأخرة علمياً من الناحية الترمينولوجية ودقة التعبير العلمي وذلك لدرجة كبيرة جدا . لكن قولنا أن اللغة العربية لغة متأخرة لا يجب أن يفسر مطلقاً على أنه يعني أنه لا أمل في تطوير اللغة العربية إلى لغة علمية. وانني أوافق كلياً على رأي ساطع الحصري في قوله : « فبينما نرى بعض اللغويين لا يزالون يدعون أن العربية هي أغنى لغات العالم ، نرى بعض المفكرين يذهبون إلى عدم قابليتها لتكوين المصطلحات العلمية التي يحتاج إليها الجيل الحاضر ، إننا لا نشارك الأولين في افراطهم ، ولا نوافق الآخرين على تفريطهم » (٢٣) .

إن ساطع الحصري يجعل اللغويين العرب المحافظين هم المسؤولين بالدرجة الأولى عن تخلف اللغة العربية ، خاصة وأن عقليتهم الرجعية ليست سوى تعبير واضح عن الفكر الخرافي في مجتمع متخلف . إننا نرى هنا أن ساطع الحصري يتفق كلياً مع سلامه موسى

---

(٢١) ساطع الحصري : اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية — بيروت ١٩٦٦ — دار الطليعة — صفحة ١١٢ .

(٢٢) نفس المصدر — صفحة ١١٣ .

(٢٣) ساطع الحصري : المصدر السابق — صفحة ١٢٢ .

فيقول عن اللغويين أنهم « انقطعوا عن مزاولة العلوم منذ قرون (و) حبسوا أذهانهم في دائرة ضيقة من الأدبيات والشرعيات ، منصرفين اليها عن كل ما سواها ، وكأني باللغة العربية قد ظلت داخل هذه « الشرنقة المعنوية » جامدة خامدة ، لا تتحول ولا تتكيف، ولا تنمو ولا تتطور » (٢٤)

اذن ، فان تجديد اللغة العربية على أيدي اللغويين المسيطرين على المجمع اللغوي العربي أمر في قيد المستحيل ، فكيف يجدد انسان ما لغة وليس في حوزته حتى أدنى حد من الاطلاع على العلوم العصرية ، أضف الى ذلك الفكر الرجعي لهؤلاء اللغويين ، ذلك الفكر المعادي لكل تجديد . ان تجديد اللغة العربية ، إذن ، هو من وظيفة العلماء الشباب العرب وحتى اذا لم يكونوا من متقني « اكروباتيك » النحو في اللغة العربية .

يجب علينا ان نوجد مجمعاً علمياً لغوياً مضاداً ، وان نوجد ترمينولوجيا عربية علمية موحدة ، مأخوذة من الترمينولوجيا العلمية العالمية ، لتكون بين العلماء العرب لغة مصطلحات موحدة من جهة ، وبين العلماء العرب وعلماء الشعوب الاخرى أيضاً ترمينولوجيا علمية تجعل التفاهم فيما بينهم ممكناً . وهذا التفاهم العالمي لن يكون ممكناً لو ترجنا كل مصطلح للعربية .

لقد تطرق ساطع الحصري مثل سلامه موسى الى هذه القضية وأعطى رأياً واضحاً كل الوضوح . فهو يشير الى أننا « صرنا نرى تبلبلاً في المصطلحات المستعملة من قبل الكتاب المختلفين ، وخلافاً بيناً في أمرها ، ليس بين الأقطار العربية فحسب ، بل بين الكتاب الذين يعملون ويكتبون في القطر الواحد أيضاً » (٢٥) .

لذلك قدم ساطع الحصري اقتراحات بناءة ، وذلك قبل مايزيد على العشرة سنوات ، من أجل تعاون وثيق بين العلماء العرب لايجاد ترمينولوجيا علمية موحدة في العالم العربي . وفي هذا المجال يعلن الحصري بصراحة أنه لاضرر من أخذ اسماء المخترعات والمصطلحات العلمية كما هي عليه من اللغات الأخرى . فهو لايرى مانعاً ، على سبيل المثال ، من « أن كلمة « تلفون » الافرنجية تغلبت على الكلمات العربية التي اقترحها بعض اللغويين » (٢٦) .

وبخصوص المصطلحات يرى ساطع الحصري مجالين للأخذ بهذه المصطلحات . المجال الأول هو المجال التخصصي . يقول بهذا الصدد « بعض المصطلحات تبقى بطبيعتها محدودة

(٢٤) ساطع الحصري : المصدر السابق — صفحة ١١٤

(٢٥) ساطع الحصري : المصدر السابق — صفحة ١١٥

(٢٦) نفس المصدر — صفحة ١١٦

في أحد ابحاثي (٣٠) فاتهمني احــدهم ، وهو محي الدين اسماعيل (٣١)، بأنني « مليء بالعقد النفسية » لاستعمالي هذه المصطلحات الجديدة ، أما الاخر وهو مجــاهد عبد المنعم مجاهد (٣٢) فاتهمني « بتدويخ القاريء ومحاولة إبهاره » بالمصطلحات التي استعملتها .
وهنا يحير العالم العربي ، فهو عرضة للهجمات المسعورة كل مرة يحاول فيها إدخال شيء جديد ، في عملية التجديد الشاملة للثقافة العربية المعاصرة . وتجديد اللغــة العربية جزء أساسي من عملية تجديد الثقافة كما رأينا رغم الهجمات المسعورة .

٤ – بعض الملاحظات الاختتامية :

رغم الصعوبات الشاقة التي تعترض عملية تجديد اللغة العربية المعاصرة ، فان عملية التجديد يجب أن تسير على قدم وساق . لقد كانت عملية التجديد حتى الآن مــتروكة للمجمع اللغوي العربي ؛ لكن كما أشرت مراراً في هذا البحث لا أمل مطلقاً في ان تجدد اللغة العربية على أيدي اللغويين العرب المحافظين غالباً . إن عمليــة التجديد قد عطلت وخربت بسبب اشراف اللغويين العرب عليها ، وخلال السنوات الطويلة المنصرمة لم يتمكن هؤلاء مطلقاً من إغناء اللغة العربية .

إن ماحدث من إغناء للغة العربية في الفترة المنصرمة كان بشكل فردي ، وبواسطة جهود شخصية بحتة قام بها بعض العرب المرموقين .

إن أغناء اللغة العربية لن يتم إلا على أيدي العلماء المطلعين على العلوم العصرية ، خاصة اولئك الذين تلقوا ثقافتهم في الخارج ، مهما كانت معلوماتهم متواضعة عن قواعد اللغة العربية و « اكروباتيك النحو » .

إن تجديد اللغة العربية يتم ، كما يقول رئيف خوري بحق ، عن طريق « تطوير هذه اللغة تطويراً تتساوق فيه جهود العلماء المتخصصين وإبــداع أبناء الشعب الذين

---

(٣٠) انظر : بسام طيبي : الثقافة العربية بين الرجعية والتقدمية .
المصدر الآنف الذكر .

(٣١) محيي الدين اسماعيل : في الثقافة العربية ايضاً — في : الآداب عدد ١١ سنة ١٦ — نوفمبر ١٩٦٨ صفحة ١٨ — ٢١

(٣٢) مجاهد عبد المنعم مجاهد : نقد ابحاث عدد اكتوبر ١٩٦٨ من الآداب — في : الاداب — نوفمبر ١٩٦٨ — عدد ١١ — سنة ١٦ — صفحة ١٤ و ٥٥ — ٥٦

يرافقون الحياة » (٣٣) كذلك من طريق الـ « أخذ (بـ) كل لفظ من اللغات الاجنبية لا مرادف له في العربية ، وذلك بعد تحويله الى وزن عربي » (٣٤)

يجب أن ندرك ان معنى تجديد اللغة العربية هو جعلها مفتوحة الصدر على العلوم العصرية ، ومعنى هذا هو الاخذ بالتكنولوجيا العلمية العالمية من أجل اغناء اللغة العربية بالمصطلحات العلمية الحديثة . ومن السخافة القول أن تعريب المصطلحات - أي عدم ترجمتها - يعني تخريب في اللغة العربية ، فالعكس هو الصحيح . وان الابقاء على اللغة العربية بعيداً عن المصطلحات العلمية الحديثة هو التخريب بعينه لأنه يعني افناء اللغة العربية بالتدريج .

(٣٣) رئيف خوري : الادب المسؤول - دار الآداب - بيروت ١٩٦٨ صفحة ٢٠٠ .

(٣٤) نفس المصدر - صفحة ٢٠١

أضاميم الأصيل (١)

شعر : حامد حسن

عرض : ظافر عبد الواحد

هذا هو الديوان الثالث للشاعر حامد حسن ، بعـد (ثورة العاطفة) و (عبق) . وفيه يطرح مشكلة الالـتزام ، ويتخذ موقف (الفن للفن) ، ويلتزم قضية الجمال !.

والحق أن مسألة الالتزام أتاحت لغير الشعراء أن يزاودوا في مجال القضايا المقدسة ، معتقدين أن هـذا يشفع لهم في أن يقدموا الى القراء ما ليس شعراً على أنـه شعر ، وهم لايقوضون غير إعلانات في أحسن الأحوال .

(١) منشورات دار الثقافة - دمشق ١٩٦٨

والقضية الثانية التي يطرحها حامد حسن هي قضية الشعر القديم والشعر الحديث ، ويرى أن الكلام إما أن يكون شعراً أو نثراً ، وبذلك يحيل معظم مايدعى بالشعر الحديث الى فصيلة النثر .

ولكنه إذا تنكر للشعر الذي يتحرر من التفعيلة ، فإن في داخله صبوة الى أن يلبس شعره ثوباً جديداً .

إنه وهو غارق في بحور الخليل ، يدور أبيات القصيدة حتى لاتميز بين شطري البيت ، كما في قصيدة (اللاجيء والشتاء) مثلاً :

والرعب ملء الدرب ، والليل الرهيب يلف داري
ومشى الصقيع إلي والجوع المرير إلى صغاري
وعيونهم للدرب ـ درب الكوخ ـ تقتات انتظاري
يتكومون على حصيرهم ، بلا نور ونار
فتراقصت شتى الظلال الراعيات على الجدار
واريتهم خجلاً وراء الليل فاعتذر التواري
خجل الظلام من العبور على الصبيات العواري
باركته ودفنت تحت حنان جانحتيه عاري

وهو يتمرد أحياناً على شطري الشعر العروضي ، اللذين يضطران الشاعر للتوقف عند نهاية الشطر رغم عدم انتهاء الجملة وعدم الحاجة ولو الى فاصـــلة ، ويضطرانه الى الاستمرار رغم انتهاء الجملة أحياناً ..

في الصفحة ٦٣ :

طليل بالسنا .

بالظـــل .

بالجنـــات ..

بالحور !!

وفي الصفحة ٨٢ :

رضيتُ ..

واتخذا من غرفتي سكنا

صمت الدجى ..

وسراج خافت ..

وأنا

وفي الصفحة ٣٨ نرى :

وأحلت عمر بنيَّ ،

ـ كل العمر ـ

حشرجة احتضار ؟

وليس هـذا من قبيل الإخراج الفني وحسب ، ولكنه فرز للجملة المعترضة ، إذ أن الشطر الأول ينتهي باللام الساكنة ، بينما يبدأ الشطر الثاني باللام المتحركة . وكأن الشاعر أحس بأنه أضاف الجملة المعترضة لضرورة الشعر ، ففرزها ليستطيع القارىء الذي يقرأ قراءة وظيفية أن ينتقل الى بحر آخر فيقرأ البيت في الشطر التالي :

وأحلت عمر بنيَّ حشرجـة احتضار

* * *

لنعد إلى قضية الالتزام . إن الشاعر حامد حسن ، حين يعلن عـدم التزامه ، فانه لايتبنع نظرية (الفن للفن) بقدر مايتبـع نظرية (الفن معرفة) .

ان الحب هو الطابع الغالب على قصائده . قد نجد في الديوان قصائد عن اللاجئين والاقطاع وقصائد مناسبات ، ولكن هذا لا يسمح لنا بتصنيفه مع

شعراء المناسبات ، وهو لا يقسر نفسه على التزام موقف من الاشتراكية او قضية فلسطين . انه يحاول ان يعبر عن تجاربه الفنية ؛ فاذا كانت مهمة العالم ان يحلل لنا بعقله المادي بنية الأشياء والمجتمعات ، فــان مهمة الفنان ان يسبر بحدسه غور هذه الأمور ليعرفنا عليها بأسلوبه الجميل .

واذا قلت ان حامد حسن قد بذ ابن الرومي في الوصف وتحليل النفسيات ، فانني أسيء الى الرجل . ولكن الشاعر حامد حسن يسير على الطريق نفسها ليكشف لنا عن قضايا القرن العشرين من خلال حب القرون الوسطى .

يقول في وصف راقصة :

وتدور ... تخطتها العيون الراصدات ، فما تصاب

وتقصفت جسـداً !! تكاد عليه تحترق الثياب

ويقول في قصيدة (خطايا وآثام) :

أطفئي مصباحنا ، جاع السرير

واهدئي ، لا تجزعي ، قام الضمير

نعس النجم عـــلى نافـــذتي

وغفـــا كأس سميري ، والسمير

ويقول في قصيدة (مجنونة العطر) :

ظمآن !! في شفتي الصيف متقد

والكأس تومىء للظمأى

ولا أرد !!

ويقول في (مهمة) :

نزلت على لهفي

وجوع دمي ..

وما

نعما بها ،

وتسربت من أدمعي

ويقول في (شقراء)

تتطلعين الى اللهيب ، وكيف لا

ترد اللهيب فراشة حمقاء ؟؟

وترين ... أن الدفء دفء عواطفي

نعمى ، ... وكل جهنم حمراء

وفي (أضاميم) يطلب من الشقراء أن تحرق رسائله :

قومي اجعليها لجوع النار مائدة

وحولي كل قلب شاعر حطبا ! !

• • •

قلت إن الشاعر لايقصر نفسه على التزام موقف من الاشتراكية أو قضية فلسطين ، ولكننا نكتشف في الديوان قصيدة اشتراكية وقصيدتين عن فلسطين .

فهو في قصيدة (ريف وريفيون) التي يصف فيها جمال الطبيعة الريفية ونساء الريف ، يقول :

أترع جفونهم بأحلام البيادر ، والغلال

واجعل نجومك في قطاف كرومهم فرح السلال !

وأملأ شتاءهم وصيفهم ، بدفئك ، والظـــلال
وازرع مكان الذل فوق جباههم كبر التعـــالي
ليرى الأمير - إذا تلفت عبده - لفت اختيـــال

ويصف في قصيـــدة (اللاجيء والشتاء) ما يعانيه لاجيء فلسطيني وأسرته من برد الشتاء :

ومشى الصقيـع إلي ، والجوع المرير إلى صغـاري

وتتحدث اللاجئة الفلسطينية (لينا) عن ابيها :

وتغنيـه - ليحيـا - كذبـــاً
دمت عوناً يامنى ، ياكذب !!

ليس ضرورياً ان يهتف الشاعر بسقوط الإقطـــاع والصهيونـيـة ، بـل يكفي أن يصف لنا بصدق حال الفلاحين واللاجئين ليسهم بذلك في إذكاء ثورة الحرية ، وهذه هي مهمة الفنان .

ميمونة

تأليف : عبد الله ساجي

ترجمة : بهجة فنصة ونعيم قداح

عرض وتقديم : هشام دجاني

رواية « ميمونة » هي بحق ، احدى روائع الأدب الافريقي الحديث . وقد كتب هذه الرواية ، باللغة الفرنسية ، الكاتب السنغالي عبد الله ساجي . ويتميز هذا الكاتب الافريقي بدقة الوصف ، وباحاطة هذا الوصف وشموله للبيئة الواسعة التي تجري فيها الحوادث ، كما يتميز بالصدق وعدم المبالغة . وقد جاءت روايته وصفاً صادقاً وشاملاً ودقيقاً للبيئة السنغالية في الريف والمدينــة على حد سواء، في فترة تعود الى ما قبل ربع قرن تقريباً، بل يمكن القول انها وصف صادق للبيئة الافريقية الاسلامية كلها . ويكاد القارىء العربي حين يقرأ هذه الرواية يحس

بأن عبد الله ساجي انما يتحدث عن بيئة شبيهة كل المشابهة بالبيئة العربية ، في الريف والمدينة ، في فترة مقابلة لتلك الفترة التي جرت فيها احداث روايةميمونة .

وميمونة — التي سميت الرواية باسمها — فتاة سنغالية صغيرة حلوة تنشأ في بيئة ريفية فقيرة متخلفة . . في قرية نائية من قرى السنغال . وتكبر الفتاة ، ويحدوها امل في ترك بيئة القرية المحدودة التي لاتوى فيها الا كوخ امها المتهدم ، والسوق . . حيث تبيع امها بعض الخضار لتعود اليها في آخر النهار . وتتطلع الفتاة الشابة الى السفر الى دا كار العاصمة ، حيث تعيش اختها في كنف زوجها الثري . ولم لاتسافر الى دا كار ؟ أليست جميلة وذكية كأختها ؟ ويزيد في رغبة ميمونة في السفر رسائل اختها المشجعة التي لم تكن تريد لها أن تعيش في القرية .

أما الأم دارو — والدة الفتاتين — فلم تكن ترغب في مغادرة القرية رغم كل ماتعانيــه من بؤس وفقر . فقد اعتادت حياة القرية وألفتها وألفت احاديث العجائز الثرثارات في سوق القرية . ولكنها لم تقف في وجه ابنتها ميمونة عندما رأت عندها الرغبة القوية في هجر القرية البائسة الى كنف المدينة التي تنعم ببعض مظاهر الحضارة ، بعد ان سمعت ابنتها الكثير عن هذه المدينة الباهرة . ورغم أنها كانت تحب ابنتها الى درجة العبادة فانها لم تجد بداً في النهاية من السماح لها بالذهاب الى دا كار لأنها لم تشأ أن تقف في طريق سعادة ابنتها ، ولأنها تمنت أن تظفر ميمونة ، وهي الفتاة الجميلة الذكية ، بزوج كزوج اختها ، من أبناء العاصمة ، تعيش في كنفه بهناء ورخاء .

وينتقل بنا الكاتب بعد ذلك وبميمونة الى المدينة ، بعد أن جعلنا نعيش معها في قريتها منذ طفولتها المبكرة حتى أزهر شبابها وأينع ، وحتى اصبحت اجمل

فتيات القرية .. بعد أن جعلنا نعيش مع احاسيس الفتاة القروية الافريقيـــة وتطلعاتها وآمالها .

والمدينة هي العاصمة داكار في فترة الثلاثينات . فترة بداية انتقال مظاهر الحضارة الغربية الى مدينة افريقية محافظة مازال اهلها متأثرين بالتقاليد والاعراف القديمة الموروثة دون أن يأنفوا تمامـــاً مع الحياة الجديدة التي بدأت تزحف الى مجتمعهم لتغير الكثير من العادات والتقاليد ، ومن الأفكار والمفاهيم .

واذا كان النصف الأول من الرواية هو وصف صادق لأحاسيس الفتاة الساذجة وتطلعاتها من خلال بيئتها القروية الريفية الضيقة ، فان النصف الثاني هو وصف صادق لأحاسيس الفتـاة القروية التي بهرتها أضواء المدينـــة وحياة أهلها وسكانها .

ولكن الفتاة القروية الطيبة تتعرض لتجربة عاطفية قاسية وسط بيئة المدينة التي لم تألفها ، والتي كثيراً ماتحفل بالزيف والقسوة . ان اختها لم يكن يهمها الا المظاهر الخادعة والا تأمين زوج ثري لها .

ولكن ميمونة لم تكن تميل الى نموذج الرجال الذين كانوا يترددون على بيت شقيقتها لطلب يدها . ان قلبها البكر لم ينفتح الا لشاب صغير في مثل سنها .. شاب عصري .

ولم يكن في وسع ميمونة أن تصارح اختها ، في تلك البيئة المحافظة ، بحقيقـــة مشاعرها ، كما لم يكن بوسع الشاب الصغير الفقير أن يطلب يدها من صهرها الغني الذي كان يطمع هو الآخر في أن يناسب رجلاً ثرياً .

وتسقط الفتـــاة .. وينفضح أمرها .. وينقلب عليها الجميع .. حتى أختها .. ولا تجد ميمونة .. بعد أن تحطمت كل آمالها في المدينة وحياة المدينة ،

سوى أن تعود الى قريتها البائسة .. الى امها المسكينة .

وتنتهي الرواية نهاية حزينة ، ولكنها نهاية طبيعية .. فميمونة الشابة القروية البريئة قد انتقلت فجأة الى عالم المدينة الغريب عنها .. وهناك وجدت نفسها وحيدة في بيئة قاسية .. وكان من الطبيعي أن تواجه محنة عنيفة ..

وعبدالله ساجي يقدم لنا من، خلال قصة عاطفية مؤثرة، وصفاً حياً وصادقاً لهاتين البيئتين بكل مافيها من تناقضات وعيوب .. يصف لنـــا أخلاق الناس وعاداتهم ومفاهيمهم في كلتا البيئتين .. وصفا يصل الى حد الابداع .

إسرائيل والسوق الأوروبية المشتركة (١)

تأليف انجلينا الحلو

عرض وتحليل : ميشيل كيلو

تبذل اسرائيل منذ عدة سنوات جهوداً متواصلة للانضمام الى السوق الأوروبية المشتركة ؛ وهي تقدم لدول السوق الاغراءات احياناً ، والحجج احياناً اخرى .

أما الاغراءات فتتلخص في ان أسرائيل البلد الوحيد في المناطق المحيطة بالسوق المؤهل عملياً لأن يكون له مستقبلا صناعياً ذا شأن ، وأنها لا زالت حتى الآن دولة غير كاملة التكوين ، مما سيمنحها القدرة على ان توسع قاعدتها الصناعية والبشرية والمالية في المستقبل ، حين يهاجر اليهود اليها ، أي حين يكتمل تكوينها . وأما الحجج فقائمة على أن واردات اسرائيل من دول السوق تسبب عجزاً كبيراً

(١) دراسات فلسطينية - مركز الأبحاث . الكتاب رقم ٤٠ - بيروت ١٩٦٨

كبيراً في ميزانها التجاري، وكدليل على صحة مزاعمها تقدم الأرقام التالية :

ارتفعت صادرات اسرائيل ما بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٥ بمقدار ٢٣ ٪ ولكن هذا الارتفاع لم يتجاوز في حالة السوق سوى ١٤،٦٪ .

ارتفعت واردات اسرائيل من العالم الخارجي في نفس الفترة بنسبة ٣٤،٣ ٪ ، بينما ارتفعت وارداتها من دول السوق بمقدار ٣٠،٦ ٪ .

وتستنتج اسرائيل من هذا أن من واجب دول السوق معادلة ميزانها التجاري معها ، ولقد بذلت اسرائيل كل جهد ممكن لتحقيق انضمامها الى السوق او اندماجها معها ، إلا أن نوعية العلاقات الاقتصادية الفرنسية بشكل خاص مع السوق العربية في شمال افريقيا والمستعمرات الفرنسية السابقة ، وتركيبة هذه العلاقات ، قد حالت دون قبول الطلبات الاسرائيلية ، كما حالت هذه العلاقات دون ادراج البرتقال (وهو السلعة الأساسية التي تؤمن لاسرائيل النقد النادر) ضمن قائمة السلع الاسرائيلية التي سمح باستيرادها من اسرائيل مع مراعاة معاملتها بصورة خاصة ، ولا زال عدد السلع التي تحظى بمثل هذه المعاملة لا يتجاوز خمس سلع من اصل مئة سلعة كانت اسرائيل قد تقدمت بطلب لمعاملتها بصورة خاصة .

هذا وقد رفضت حتى الآن الطلبات والمحاولات التي قامت اسرائيل بها للانضمام بصورة من الصور الى السوق ، وكانت اسباب الرفض (وقد تبنتها فرنسا واعلنتها) ان اسرائيل ليست من الدول الاوروبية ، ولاهي من المستعمرات ، وان طلبات العديد من الدول للانضمام الى هذه السوق لم تحظ بمعاملة خاصة ، ولم تبحث بصورة استثنائية ، فكيف يجوز اعتبارها هي حالة خاصة ولماذا تعطى طلباتها الأولوية ؟

والواقع ان الأسباب الرئيسية التي تدفع باسرائيل الى التصميم على الانضمام للسوق هي التالية :

١ – حالة العجز الدائم في ميزانها التجاري تجعلها ترى ان الحل الوحيد لمشاكلها الاقتصادية هو زيادة كمية صادراتها .

ب – حاجتها الدائمة لاستيراد الاموال ، وهي تعتقد انها باشتراكها في السوق ستنتفع حتماً من المعونات التي يقدمها بنـــك الانماء الاوروبي ، أو أي صندوق اوروبي تابع للسوق . وهي تعتقد انها ستستطيع في حال انضمامها الى السوق اجبار هذه على تمويل مشاريعها لكي ترفع من مستوى الاقتصاد الاسرائيلي ليتكامل مع السوق نفسها (تقر السوق بهذا المبدأ بالنسبة لدولها الاعضاء او للدول المرشحة للانضمام اليها) . والهـــدف من ذلك هو ربط السوق بمشاريع الانماء الصهيوني القائمة على استقبال المهاجرين واستعمار الاراضي، وهو هدف سياسي تريد اسرائيل توريط كل الدول به .

ج – سيسهل اشتراك اسرائيل في السوق حرية هجرة الاشخاص ورؤوس الاموال، وهذا ما سيسهل على رؤوس الاموال ان تصدر الى اسرائيل ، كما سيوفر عليهـــا الكثير من النفقات التي تبذل اما للاقناع بالهجره ، او تدفع للنقل والتسكين .

د – يمكن القول ان اسرائيل تأمل من اشتراكها في السوق الاوروبية المشتركة ان تصل الى علاقة ما مع الاسواق العربية . انها تأمل ان توسع قاعدة تجارتها مع الدول العربية عن طريق طرف ثالث هو دول السوق ، وان تتمكن بذلك من كسر الحصار العربي حولها .

هـ – تنظر اسرائيل الى الاسواق الافريقية التي تعتبرها « سوقاً فريدة بحد ذاتها » ، وتأمل أن تجد هناك إقبالاً على سلعها بسبب الثغرات الموجودة في الاسواق الافريقية النامية ، ولعدم وجود اللاسامية هناك .

و – تريد اسرائيل الالتحاق بالسوق الاوروبية المشتركة خوفاً من انضمام انجلترا والمنظمة الاوروبية للتجارة الحرة الى السوق ، وهذا ما سيلحق اضراراً فادحة بالاقتصاد الاسرائيلي ، اذ تبلغ تجارة اسرائيل مع هذه الدول ٢٣٫٧ ٪ من مجمل تجارتها الخارجية » (١)

ان دخول اسرائيل الى السوق لم يتم حتى الان ، ولكنها بدأت تتسلل اليها ، ومع ان هذا يجلب للاقتصاد الاسرائيلي مصاعب جمه ، اذ انه يتطلب اعادة بنيته من جديد ، فانه سيكون ، كما قال وزير مالية اسرائيل بنحاس سابير : « ذا فائدة لاسرائيل في المدى البعيد » .

(١) اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة : ص ٧٤ – ٧٧